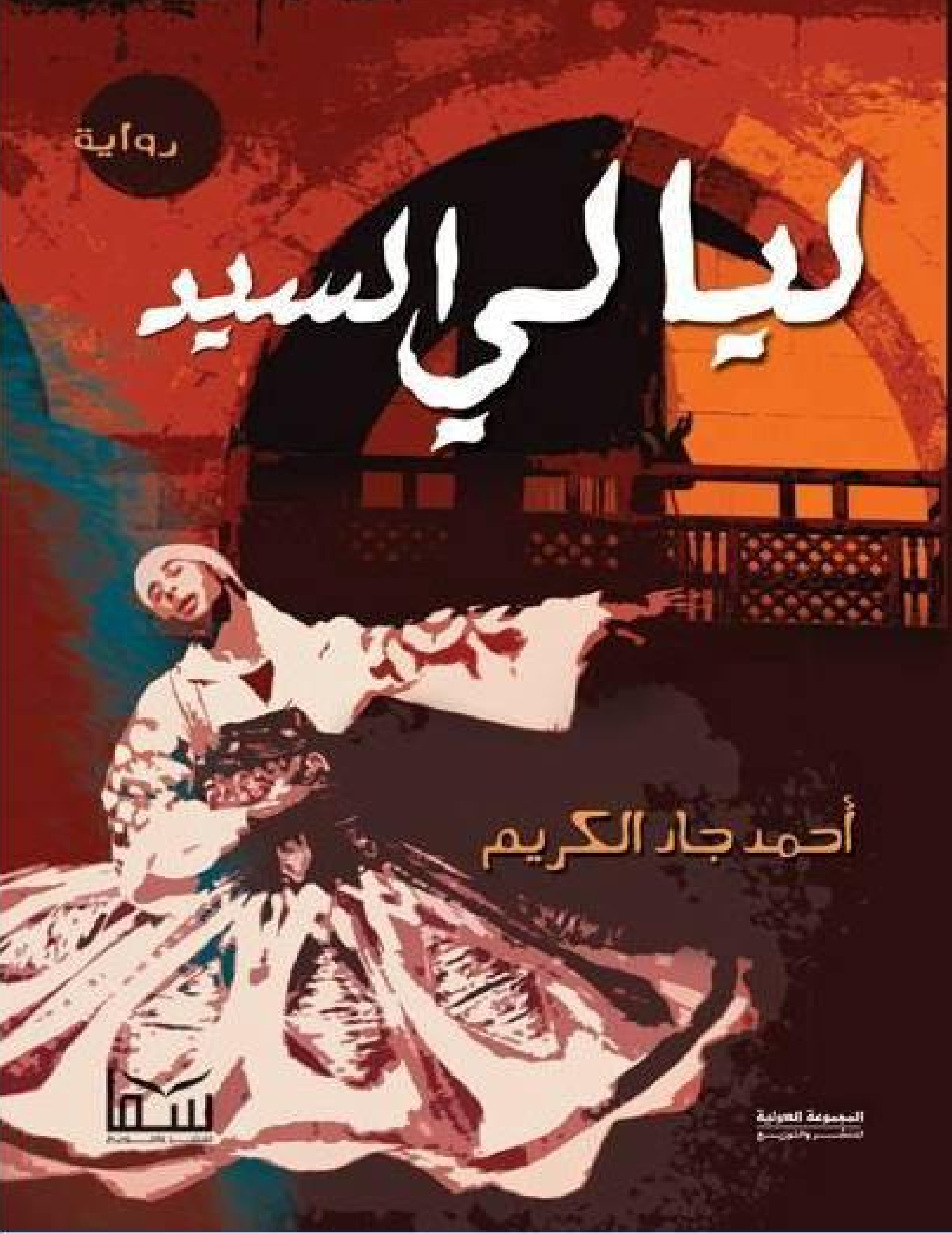
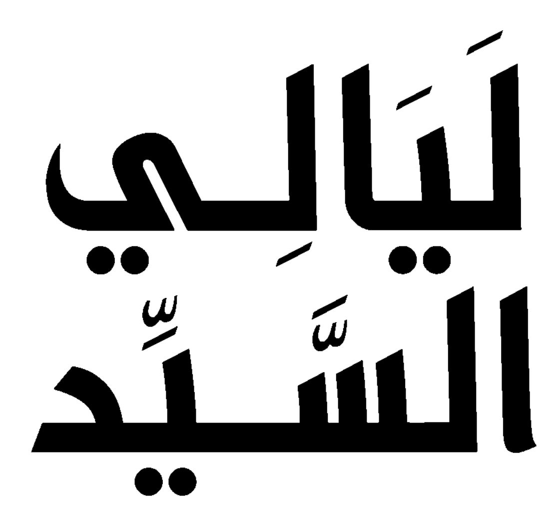
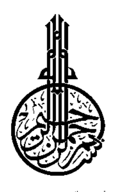

رواية
ليالي السيد
أحمد جار الكريم
المجموعة الدولية

رواية



أحمد جاد الكريم





العنـــوان: لـيـالـي السِّـيِّـد

المـــؤلـف: أحمد جاد الكريم

إشراف عـام: نجــلاء قاســـم

الناشـــر



15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيـــع

المجموعة الدولية
للنشـر والتـوزيـع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون: 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: إيمان صـلاح

إخراج داخـلي: معتز حسنين

الترقيــم الدولــي: 978-977-6451-///-/

رقـــم الإيــداع: ///// / 2014

الطبعــة الأولــى: مايــو 2014

لَيَالِي
السَّيِّد

إهـــداء

إلى رُوْح صديقي جمال الضبع

لعلك مرتاحٌ الآنَ..

أحمد جاد الكريم

﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(سورة طه - آية 55)

(1)

ما قَبْل اللَّيَالي

اقتربت منه، أربكني حيائي، تعثرت في خجلي، لفَّني بنظرة شـاردة، يـده المعروقـة تمتد نحـوي، أرى باطن كفه بلونه الأحمر، شـعر كثيف يعلـو ظاهرهـا، أحتضن الكـف، ألثمها في إغضـاء، زاد قربـي، حرارة كفه تسـري في دمي، تخترق عظامي، فتخدّرنـي، أهفو لضوء عينيه، لم يسـتطع نظري ملاحقة ضوئهما، غضضت طرفي، مسـربلا في صمتي، صوتـي ينحبس في حلقي، حمـرة وجهي، ذهاب ثباتي عبر ريح عطره، أذني في أتم استعدادٍ للتلقي عنه، الأخذ منه، جوارحي تهب من رقدتها في انتظار قدوم هَلة كلامه، صوته كأنه الضوء ينسـاب علي ظلمة قلبي، تلفعـت بالأمل، كدت أنسـى ما مضى في عامـى، ذاب وجودي، انتفي ماضـيَّ، كأنـي وُلدت اللحظة؛ لحظـة قدومه، مجيئه السـنوي يمحو ما حـدث قبله، نوره يفتـح طاقة الحلم الهـادئ، ذهولي بتجليه، اسـتقرار نورانيتـه فـي قلبي، مثـوى الحلم الراقد فـي صدري يُبعـث من جديد، جنوني، انتفاض عروقي، اختلاج شفتي، شقائي بتذكري لحظة رحيله.

لـم أعشُ عنه طيلـة غيابه، لكنها الشـواغل، في قلبي ذكـراه، وعلي لسـاني تحضر ذكرى ما عداه من البشر، بحضوره يختفي وجودهم، مع توقـع تمثلـه في لحظة أمامي، أعـودُ لكينونة حُلمي الراقـد.. في عباءته يرفل، يتطاير المسك علي أنفي فيسكرني، طرف عباءته يلامس جسدي فأنتفـض كأنـي بالسـحر ممسـوسٌ، عينـاي مركـزة على رمـال وطئتها قدمـه، بصري موزعٌ بين طـرف ثوبه والرمال المقدسـة، أيجرؤ بصري المغضـوض علـي الارتفـاع إلـى أعلى؟ صوته سـيجعل أذني تسـترق السـمع، بقـدوم الصوت يحل في جسـدي كائنٌ خرافي، كأن حواسـي تهاجرنـي، تتجمـع، تتَّحـد، فكلهـا أذنٌ تُصغي له، روحي مسـجاة فوق سحائب رحمة الله.

مـولاي وسـيدي وملاذي وكينونتـي، احتمائي بـك، لك، منك، تسّاقط دموعي، أرضعتني سيدي مراضع ذنوب ثرة

جاءتك أيامُ الفطامِ.

حرَّمتَ عليَّ المراضع من قبل، لكن اشتهاءاتى لا تنقطع.

كمالك يعتريه النقص، ونقصك يتشـوَّف للكمال، بك الكثير من الخطايا، والقليل من الدمع، فاسفح هاهنا دموعك، اغتسل بأنهار دمعك يا نتاج اللذة والألم، سـتأتيك إشـاراتي فيها المفهوم، وما يغمض عليك سـيدوَّن وسـتذكره في حينه، لا تخالف ما خُطَّ في كتابـك، ولـو حاولت فقد جـرى عليك قبل تكونك، يـا ابن الذرِّ والطيـن، فـي أصلابـك تسـري ذرات الغبـار، فاحـذر، وكن في وجل، التحم بخوفك، وازدد قربا، ارتقِ واصعد بعيدا عن موطئ قدميك، فارقْ أصل تكونك، وتُق لنداء السـماء، الأرض تُرديك،

فاختر ما يزكيك، لا تترك فيها إلا فيض دمعك، والسماء تمطرك برحمتها، سُلَّ عنك أسمالك، استبقِ شروق روحك، وارتفاع نجمك وسعوده، أفنان روحك سامقة، فاحرص على ترقيك.

عظني، زد في قولك..

أنت حِفنة تراب تمشي على تراب، لا أضمن لك غير نصحي لك، مجيئي كل عام، أسربلك بما يضمن لك الانقطاع، لكن التراب يحنُّ للتراب.

تراب!!

سيجيء الشيخ عبد العال، الزمه يا ولدى، صلِّ وراءه، ارفع أكفا تحمل قناطير الذنوب، الثم ترابا داسه نعلاه، قبِّل لحيته، اتْبع طريقته واسكب ماء دمعك بين يديه، تكن من السالكين، سيُقسم الخير لك في صحبته، ويلتصَقَ كلامه بقلبك، ثم اتركه واسعَ، تُمشط الأرض وانتظر القادم، عساك تلقاه.

كفه الكبير تعصب جبهتي، تراتيله تنساب على سمعي، لولا تماسكي كدت أخِرّ صعقا، مخدرة أطرافي، مغمضة عيناي علي صورته، شفتاه تتمتمان، في عروقى يسرى قوله، رسم لي طريق رحلتي، مدة اقامتي، حدودي المؤطرة بما لا يمكن تجاوزه، مَنْ ألقاهم، مَنْ أصافحهم، مَن أبشّ في وجوههم، ويبشون في وجهي، من أعرض عنهم، يعرضون عني، حذرني من أشخاص، وحبَّبَ لقائي بآخرين، وسكت عن البعض، لماذا يا شيخي؟ لم يجب.

استسـلمت جوارحـي لـه، أضاءت روحـي بكلماتـه، اهتـزَّ كياني، ترقبت، تلبَّس روحي بجسدي الذي لا أحسه الآن، كأني روح عالقة في كفه، كِدتُ أُلتقَفُ، ناداني باسمي، علمت أنه سيفارقني بعد لحظة، آخر ما يقوله لي يسبقه باسمي، هكذا عودني كأنه يعلم لوعتي وأساي نتيجة رحيلـه، فيطبـب قلبي الملتـاع بذكر اسـمي على لسـانه، رمقته ببصري الغائـب فـي حضوره، الآن تلسـعني الذكـرى، كل عام في هـذا الوقت يتمثـل لي، لا أرى أحدًا سـواه رغم ازدحام المـكان بآخرين، أعرفهم، تهب ذاكرتي من مكامنها.

ما حيّرني إخفاؤه عني نهاية رحلتي.

وتلك نقطة البداية.

(2)

لـقَـــاءٌ

«أغمضت عيني لحظـة، عصرتهما، لملمتُ جلد وجهي، تجمَّع ثم انكمش، كأني أتذكر حدثا مرَّ عليَّ منذ سنين، غاب عني، تذكرته فجأة، تفاصيله تَتْرى، ينقســم للحظات، كل لحظة تتلو أخرى، أفتح عيني أراه يبتعد، أعاود الغمض، تنســال بقية أجزاء ما بدأت تذكره، ضغطت على رأســي، طوقتها بكفيَّ، ما الذي يعقد لساني، أهي الذاكرة النشطة؟، في تلك اللحظة تذكرت ما قاله لي «السيد»:

سيجيء الشيخ عبد العال الزمه يا ولدى، صَلِّ وراءه، ارفع أكفا تحمل قناطير الذنوب، الثم ترابا داســه نعلاه، قبِّل لحيته، اتبع طريقته واسكب ماء دمعك بين يديه تكن من الســالكين، سيقســم الخير لك في صحبته، وتلقَ كلامه بقلبك، ثم اتركه واسع، تمشط الأرض

أأناديه وأنا خلفه؟، لا، لن يجوز، ســأحثُّ خُطاي وأســبقه، وعندما أتجاوزه أناديه، سيعرفني عندما يراني، رغم مرور العام إلا أنني لم أتغير ولم تتبدل ملامحي، ما زلت كما كنت في العام الماضى، بعض الصُّفرة علتْ وجهي، شعرات بيض نامت بين سواد شعري.

ما إن سمعت حفيف ثوبه حتى جرى الكلام على فمي، كدت أخطئ وأناديه من خلفه، كتمت صوتي، وانحبس لساني، حثثت الخطى حتى وازيته، نظرت إليه، لم يعبأ بنظرتي، اقتربت أكثر، كدت ألامسه، خطوة خطوة، تقدم عليَّ ناديتُ:

يا شيخ عبد العال.

للشيخ عبد العال مهابة رغم ضآلة جسده، استطالة وجهه مع ضمور صدغيه تبديهما مدببين، تلفُّ عظام اللَّحْي لحية خفيفة محددة بيضاء، مهذبة، شاربٌ محفوفٌ قد بقيت قشرة شعر أسود مختلط بشعر أبيض مفروشة أسفل الأنف الصغير المقوَّس، عيناه ضيقتان فيهما عمق ولمعة خفيفة توحي بالرهبة الممزوجة بالصفاء، أعلى العينين قوسان من الشعر نحيلان يشف عن جلد أسفل الحاجبين، الجبهة عريضة تناسب استطالة الوجه، وفوق الرأس عمامة بيضاء ملفوفة بإحكام، نصع بياضها فأضاف للوجه قسماتٍ نورانيةً، ومع إحكام وضع العمامة برزت أذنان طويلتان ناصعتا البياض، صغر حجم شحمتي الأذن لا يناسب طولهما، الرقبة نحيلة، رشيقة، بدت عروق خضراء، وغضون بسيطة، من بعيد يصعب على الرائي تحديد عمر الشيخ، مع الاقتراب يبدو لك أنه في الخمسين مع أنه تجاوز الستين منذ أعوام، عباءته الفضفاضة تظهره أقل من عمره، اتِّساعها يُخفي نحول الجسد، تنغرس الساقانِ في الرمال كدبوسين، عظام كسيت جلدا، ورغم ذلك يبدو في مشيته ثابتا كأن أقدامه أقدام خيل تحمل جسد عصفور، حذاؤه من القماش ملتف على قدميه، والجورب الأسود الصوف يطل إذ تنحسر العباءة عن الحذاء القماشي.

أمـا عمله فلا يدري أحد له عملا يرتـزق منه إلا أنه بعد وفاة زوجته يضرب في البلاد مسـافرا، ولا يُرى إلا مع انتصاف شـهر شـعبان ويظل إلى أن يأتي عيد الفطر ثم يسيح في البلاد، وقد يبقى إلى عيد الأضحى، وفي أغلب الأحيان يؤدي فريضة الحج أو يُتاجر في بلاد الحجاز.

التفـتَ إليَّ دون أن يحول رأسـه نحوى، فقط عينـاه دارتا فلمحنى، في صمت أعدت ما قلته:

- يا شيخ عبد العال.

- نعم يا بني.

صافحته فمَدَّ يده يصافحني، عرفني عندما ملتُ على كتفيه، أقبلهما، ابتسـم فبدت نواجذه، سـرنا صامتين، لم أجد ما أقوله له سـوى السؤال عـن الصحة والعافية وأحوال البلاد التي طافها لم يجب إجابة ترضينى، بضـع كلمات كمن يريد إنهاء الحديث، وددت لو أحكي له عن لقائي بـ «السيد» خشيت ألاَّ يصدقني، أو يكون قد علم بلقائي به، خشيت أيضا أن ينالني غضب منه، أن يحسدني، يستصغرني، يقلل من شأني، رغم ذلك رجوت أن يعرف ربما ينالنى بعطفه، يشركني في سفراته وتطوافه البلاد، لو عرف السـر لاجتباني، لاصطحبني لزوَّجني ابنته الوحيدة، أسمع عن جمالها، أخلاقها، خروجها من كنف رجل كالشيخ عبد العال.

لكـن من ينال رضا الشـيخ حتى يزوجه كريمتـه؟ كثر خُطَّابها، الكل يريد أن ينال بركة الشيخ.

لـه بنـت واحدة تقيـم معه أيام مكوثه فـي البلدة ثم مـع رحيله تنتقل لتعيـش عنـد أقارب أمها في الوجـه البحري، البنت اسـمها ريَّانة تخيط

ثياب أبيها بنفسها، تقوم بكِيِّ ملابسه بعد غسلها، تعد له أطيب الطعام وما يحتاجه من لوازم سفره، تلبسه الجلباب والقفطان مع قرب سفره.

تظل حياة الشيخ عبد العال وابنته عدا هذه الإشارات وتلك اللمحات من حياتهما طلسما ولغزا يصعب كشفه، أجمع الناس كبيرهم وصغيرهم أن في حياة الشيخ أمرا محيرا أو سرا مغلقا لا يستطيعون فهمه أو النفاذ إليه، ورغم كثرة التأويلات إلا أن الغموض ما زال يلفُّ حياة الشيخ، أرجع أكثرهم إلى صلته بـ «السيد» وبنائه قبرا قرب ضريحه؛ إطالة المكوث أمام الضريح، مناجاته بكلام لا يفهمه العامة، سيره مطرقا أو موِّزعا بصره في آفاق شتى، عدم إصغائه لنداء سائل يزعق، مروره البطيء وانتباهه أحيانا لأقلِّ كلمة تُقال.

حكي رجلٌ أن صديقا له تقدم لخطبة رَيَّانة ابنة الشيخ، رآها وهي مسافرة مع أبيها متجهين للوجه البحري، انتظر عاما أو أقل حتى يرجعا، عادا أيام المولد، قابل الشيخ، في خضوع همس له ببغيته، قال له مَن أنتَ؟ قال الرجل أنا فلان ابن فلان، لكزه في صدره، ولم يجب، بدا الشيخ غاضبا، انصرف الرجل كسيف البال، حزينا، لم يسأل، لم يستفسر، كيف له بالحديث، والجواب واضح على وجه الشيخ؟ كتم الخبر عن الناس رغم علم البعض بزيارته تلك، خاف أن يتهمه الناس بعيب فيه أو في عائلته، غاب عنهم وعلمه الشيخ، يدَّعون قراءته للغيب، علمه بأشياء، يجهلها أعلى الناس درجة في العلم، من يومها توجَّس كثير من الناس أن يتقدموا لخطبة ريانة خشية الرفض، لو كان الخاطب صالحا ما الذي يجعل الشيخ يرده؟

فكر الكثير في الأمر، رفضُ الشيخ يعني الفضيحة، الخزي، العار الذي يلحق صاحبه طيلة عمره.

هذا زمان لا يُصدق فيه أحد، يندر أن يوجد مثال للشيخ عبد العال، يبخل هذا الزمان القميء أن ينجب كثيرا مثله.

أسرعتْ خُطى الشيخ فتجاوزني بأمتار، بدأت المسافة بيني وبينه في الاتساع، قبل تواريه وسط جموع الناس الذين جاءوا ليصافحوه، مال برأسه، ظننته يفكر في شيء، التفت فجأة، صوَّب عينيه نحو عينيَّ، انفرجت شفتاه قائلًا:

عَسَاك تلقاه.

(3)

صـــــلاةٌ

الله أكبر ..الله أكبر

استيقظت الأصوات في الحناجر، علا الهتاف، ارتفعت الصيحات.

الله أكبر

عبـر مكبـر الصـوت نـادى الشـيخ عبد العـال فـي النـاس، توارت الشـمس، والصلاة أزفت، مكبر الصوت أصابه العطب، خرج الصوت مشـوها، ثم غاب، لم يسـمع أغلب المأمومين صوت الشـيخ وهو يقرأ القـرآن، الرجال مصطفون فـي الأمام، متوازون، على الرمال السـاخنة وقفت الأقدام خالية من أحذيتها، مدَّ البعض رداءً يسند عليه جبهته كي لا تتعفر بالرمال وتلتصق بالجبهة المنداة بالعرق، الشمس حرارتها باقية رغم المغيب وامتداد ظلال المسـاء، وبزوغ أوائل النجوم من مكامنها، وهج الرمال يصعد صوب أجسـام المصليـن المتقاطرة مياه وضوئهم، اصطفاف النسـاء خلف الرجال بعضهن يصلي والبعض واقفات ينظرن للأخريات، رائحة العرق زاعقة، مختلطة بعطور رخيصة وضعوها على ملابسـهن فنفذت الروائـح مخترقة الأنوف، تختنق الأنفاس، نسـاء لم

يتطهـرن مـن حيضهنّ، واقفات بيـن المصلين، عيون تطل يمنة ويسـرة والصلاة مقامة، أكف ترتفع بالدعاء وألسنٌ تلهج متوسلة، راجيةً، الأيام مفترجة، والدعاء مقبول والفرصة سانحة، أبواب السماء مفتّحة.

« يـارب وحق السـيد ومقامه العالـي، وجلال لياليـه، وعظم مكانته عندك، أخرجْ مكامن أرضي وما تحتضنه في جوفها، فلا تضن بما تبتلع من آلاف السـنين، أفض عليَّ بالوصـول فقد أضناني البحث، وقرِّب ما بعد عني».

ترامى صوتٌ هامس في سجوده يدعو ويبتهل، وتكاد عيناه تفيضان بدمعهمـا على الرمـال فتطفئ غُلتهـا وتخفف حدة سـخونتها، كلمات مختلطـة بنشـيج وارتبـاك باديينِ مـن اهتزاز جسـد الداعى المتوسـل، واصل دعاءه قائلًا:

«لا أريد أن أظل في ربقة أخى ونقوده التي يُرسلها لنا، فأرحنا بخبايا أرضنا، وأغننا بها عن الحاجة إليه».

«يا «سَيِّد» يا ذا اللطف بنا، يا مولى المفتقرين إليك، وملجأ القاصدين أبوابك، وموطئ جباه المستذلين بعزّ قدومك وتجليك».

الألسـنة في شُـغلٍ والقلوب تضطرب، ثمة غبار خلَّفه بَدءُ انصراف المصلين، وتفرقهم بعد انتهاء الصلاة، أُصلح العطب الذي أصاب مكبر الصوت، وبدأ الشـيخ خطبة قصيرة، عادةٌ اعتادها المصلون من الشـيخ عبد العال؛ كلمات يقولها بعد أداء الصلاة، يذكِّر فيها الناس بفضل هذه الأيام وأهمية الدعاء وقبوله في هذه الأوقات، نبَّه الناس على قِصَرِ تلك الأيـام» تلك أيام معدودات»، سـرعة انقضائها، انشـغال أكثر الناس في

البيع والشراء والتجارة، ونسيان العبادة، خذوا من دنياكم ولا تنسوا آخرتكم. ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾.

أطيلوا الوقوف بباب العلي وأديموا الانتظار ولا تَكلّوا، تلك أيام سراع تنقضي، فلا تفوتوها، أصيبوا من الخير فإنه كثير، ولا تنسوا «السَّيد» وفضله وبركاته التي عمَّتْ بلدكم في أيام خصها الله بالنعيم، وخصّ بلدكم بفضل مولانا وإمامنا، وطيَّب الثرى بجسده المُسجى هنا، فلكم الفضل، وعليكم السعي، فلا تتحير نفوس في غياهب التيه، هذه وجهتكم وجهة واحدة، فلا تخطِئُوها فتخطئكم البركات.

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾.

الطريق المُترب المؤدي إلى مكان تجمع الناس للصلاة، صوب الجبل، كذلك يطلقون عليه رغم ابتعاد الجبل عن مكان الصلاة، اصطفاف البيوت على الجانبين في انتظام على جانبي الطريق في انتظام يكوّن شارعا طويلا ممتدا ومخترقا غرب القرية، تنتهي البيوت تدريجيا إلى أن يصير الشارع فضاءً شاسعا وتبدو الهضبة أقرب، هنا وهناك بيوتٌ متناثرة، مساحات خضراء مزروعة قليلة، تزداد بمرور الأيام واتجاه أهالي القرية صوب الجبل وبناؤهم بيوتا هناك، إلا أن الفضاء والاتساع الرملي هو الغالب والممتد أمام عيني الناظر.

زغاريد انطلقت من بعض النسوة فور انتهاء الصلاة، تفرَّق الرجال، اختلطوا بالنسوة، وغاب صوت الشيخ عبد العال مع تعطل مكبر الصوت ثانية، كثر اللغط، وابتدأت تُلتقط الأنفاس بعد اختناقها الذي

سـبَّبه التزاحم، روائح خانقة، ملابس مغبرة مُتسخة، ملتصقة بالأجساد عبر لزوجة العرق.

صريـف الأقلام عـلا صوته قليـلا، يبـدأ التدوين من وقت اشـتباك نجوم أول ليلة من ليالى السيد، تلك التي يطلقون عليها الليلة الصغيرة، ثمة مَن يُدوِّنُ، لكل شيء بداية، وهذه اللحظة هي بداية التدوين.

مصير الحاضرين وما يفعلون، وما يأكلون في أيامهم، عدد أنفاسهم الخارجة، الداخلة إلى الأجسـاد، الدماء الجارية في العروق، كل شيء عُـدَّ أُحْصي قبل تمامه بل قبل وقوعه، كل ما يُقال ويُهمس به، وما يكتم فيختنق في الصدر، ويعجز اللسان عن قوله، المباح، الممنوع، المُحرَّم والمحلل، المسـكوت عنه، والمصرَّح به، كل ما يجري في ليالي السيد مدوَّنٌ في دفتر.

مـن أول آهـةٍ تخرج من صـدر مكلـوم، أول دمعة تجـرى من عين مـرزوء، أول كلمـة تخرج من طرف اللسـان، ابتداء كل شـيء من تلك اللحظـة، يُكتـب بالثانية والدقيقـة، لا تُقدم ولا تُؤخر ومـا دام لها بداية فنهايتهـا معلومـة، موقوتة، السـهم المنطلق نحو رسـوِّه واسـتقراره في مكمنه، يتجاوز عدة وقفات يمر بها، يفارقها، يظللها عبر مروره، يتطاير غبـار كثيف يحدثـه انطلاقه المفاجئ مع الدنوّ مـن النهاية؛ ليثقل وزنه، تخـف سـرعته، صوب همودە يسـتقر، ثـم يعلن سـكونه الأبدي وتلك هي النهاية المرتقبة، المشـتهاة، المنتظرة منذ أمدٍ، تمتد الأيام وتتطاول السـنوات ويكرر ويعاد السؤال، وفي تشـابهٍ تمر الأيام، مِداد الأقلام لا ينقطع، والحركة دائبة في نشـاط وهمة لا يتوقفان، أقلام تَكتب، أوراق

يُـراق عليها حبرٌ، الأحداث في جريان، والتدوين مسـتمر، باقٍ مادامت ذرات الزمن تتسابق نحو الهمود والاستقرار.

في الدفتر سجلٌ كامل لكل إنسان حضر إلى القرية؛ من مسَّتْ قدمه أرضهـا، مدوّن فيها اسـمه، لقبه، من أين أتى؟ ولمـاذا أتى؟ وما بغيته؟ هل سـيقضى سـاعات معـدودة ثم يرحـل أو أنه يكمل يومـا كاملا؟ أو سـيقضي لياليَ السـيد كلها، ماذا فعل؟ ما الذي باعه وما الذي اشـتراه؟ أجـاء للتجـارة أم للهـو، أم للُقيا صديـق أو قريب؟، ما الذي سـيعود به إلى أهله؟ هل سـيعود بما اشتراه إلى أهله أم سيفقده؟ ماذا سيربح وكم سيجني؟ ما الذي يفوته؟ وما الذي يحصِّله؟ ما الذي يعود به إلى أهله؟

كيف يُسـتقبلون؟ أيُّهم صحبه من أهله؟ وأيهم بقي رغما عنه؟، من تعلـق به ولده فأخذه معه، أي بهجة رآها الأطفال؟ أي معاناة؟ وكم من نقود أنفقها الآباء مع العوز والفاقة؟

(4)

عنــــاق

الألسنة تلهج بالدعاء، تتمتم، قلوب ترتجف، شفاه تختلج، اشتبكت الأصـوات فور انتهاء الشـيخ عبـد العال من خطبته، تَنـادى الناسُ على بعضهـم، تصافحـت الأيدي، عانـق الغريب من لقيه بعـد طول غياب، جفـت الدمـوع فـي محاجرهـا، وانطلقت زغاريـد النسـاء، واختلطت أصواتهـن، تلاقـت العيون في ابتسـام، وذابت الحُرقة والحسـرة اللتان ارتسـمتا علـى الوجوه منذ قليل، الكل في انشـغال عن الـكل عدا امرأةٍ متدثـرةٍ فـي نقابٍ أسـود أخفاها تماما، كانـت منطوية تَسـكنها كلمات الشـيخ، ظلـت سـاكنة بعـد انتهـاء الخطبـة جالسـة على قطعـة قماش مفروشـة على الرمال، نظراتها تغيب في حبات الرمل، مطأطئة الرأس، تُعـرف من اكتحـال عينيها، تتحدثـان رغم صمتها الكئيـب، هل يُعرف ماذا كانت تتمتم؟ وبأيِّ شـيء كانت تدعو، عيناها موزعتان بين موضع سـجودها وبين ارتفاع كفيها نحو السـماء، إغماضـة عينيها على كُحْلها البَـادي من أعلى النقـاب، احمرارهما وزنقتهما عندمـا تلح في البكاء، رغـم جهل تفسـير مـا كانت تقـول إلا أن أحـدا لا يجهل مكنـون تلك

البائسة، قصتها يعرفها القاصي والداني، زيدت عليها أشياء من قبيل الاجتهادات والتأويلات التي يضيفها الناس على أية حكاية، المبالغة أحيانًا ترتقي سلم الكذب، ما من شيء يُخرج الحقائق من الصدق إلى الكذب سوى المبالغة، والتهويل وتفسير ما غَمُضَ، وإكمال ما نَقُص، لم تسلم من نظراتٍ محيطاتٍ بها وانغراز عيون الرجال المصوبة نحوها، جِلستها طالت، لم تلحظ أن الرجالَ توزعوا، ذهبوا، أتوا، اختلطوا، العيون الوقحة، النظرات الفاجرة، تعرفها، وتعيها جيدا، قامت من مكانها، طوت رقعة القماش التي صلت عليها، وذابت في جمع النسوة المتفرقات.

الزحام يفسد كل شيء، يبدد ما في المكان من روحانية سوى ما يقرُّ في القلب من اعتقاد ببركة المكان ومن أتاه بين خوف ورجاء.

مع اشتباك نجوم السماء واحتباك خيوط الليل بدأ الظلام في طي الحاضرين، زحف المصلون صوب القرية تاركين الرمال وقد ارتسمت عليها خطوط خلفتها أقدامهم، ومواضع سجودهم، تقاطروا مصطخبين، فقد بدأ رجال في جمع مكبرات الصوت، والأسلاك الممتدة، والمرسلة من مضخمات الصوت.

(5)

سَيْلٌ

يبـدو للناظر لهـذه القرية من فوق الهضبة التـي تحدها من الغرب، والتي يطلقون عليها الجبل؛ إذ لم يروا قبل ذلك جبلا، يشاهد حدودها بنظرة واحدة من أولها إلى آخرها، وبنظرة من نظرات الجن الساكن في شـقوق الهضبة التي تحيـط بالقرية في عمر لفتة عيـن، وبعقلة أصبع له يلفها، ويحتضنها الكف، فأطول شـارع في القرية أقصر من تلك العقلة الصغيرة.

من فوق يبدو كل شـيء متناهٍ في الصغـر، مكعبات البيوت الواطئة، حتـى الذي ارتفع منها يظهر كصندوق تمدد لأعلى ليناطح مئذنة طويلة يبرق نورها ليلا، الشارع الطويل ناحية الشمال يفصلها عن قرية مجاورة لها،ملتصقـة بها حـد التماهي، فلا يعرف الغريب فاصـلا حقيقيا بينهما فيظنهمـا بلـدة واحدة كبيـرة، تترامى في الجنوب، بيـوت قليلة ملتصقة تاركة، الصحراء تبتلع أغلب مساحة الجنوب، وما بين الشمال والجنوب تقع المقابر يحدها سور يبدأ بمسجد أطلق عليه جامع «الجبانة» تقام فيه صلاة الجنازة على الموتى، الموت داخل حدود السور، يمارس نشاطه

مُبتدئا بالمسجد حتى يوارى الميت في تربته، وللموت هيبة وللموتى كراماتهم، تلك التي أهدرت بسيل جرف قديما أسوار المقابر وخلط العظام ببعضها، وتماهت الحدود الفاصلة بين كل مقبرة وأختها، ذابت الأرواح في تلاقٍ جرى الناس تاركين بيوتهم متماسكة في هلع، توجهوا صوب المقابر، لم يفكروا في أطفالهم ولا حتى النساء اللاتى يرتعدن من البرد ويخشون أن تخر عليهم أسقف البيوت، ساعتها كان الطوب اللبن هو عماد معظم البيوت والمقابر، لم يرحم السيل قبرا ولا منزلا بكي الأحياء الموتى وبكوا أنفسهم، المياه مرتفعة تضرب أسفل الجدران بقوة، ويتسرب الماء عبر البوابات ليخلق لنفسه خنادق يتراكم فيها وينخر في أساس الجدران.

في الغرب لاشيء سوى الصحراء والهضبة ومساحات قليلة جدا من الزروع وبيوت طينية وإسمنتية متناثرة حول الحقول ومياه شحيحة بالكاد تصل لساكني البيوت، فتفي باحتياجاتهم، وهناك في الشرق حيث الحقول تمتد بخضرتها وتمر الترعة مغذية الحقول بالنماء والحياة، كل أراضي القرية صلدة عدا تلك المناطق الشرقية تُلقي بظلال وارفة على وسط القرية، أما البقية ففي حنين إلى ذلك الشرق الرطب، ونظرا لتباعد هذه المساحات الخضراء أطلق على القرية «وادٍ غير ذى زرع»

صار الوادي بلا زرع ولا نماء فقد أتلف السيل كل ما نبت على الأرض، صارت الشوارع موحلة ركد الماء فيها لأيام طوال، تهاوت جدران البيوت القديمة، وفرَّ كثير من الناس إلى بلاد أخرى التماسا

للمـأوى، البيوت الإسـمنتية هي التي ظلت متماسـكة تشـرئب متباهية على البيوت الطينية المَحنيَّة أسفل مياه الأمطار.

هـدأت الأمطـار في مسـاء اليـوم ولـم تهدأ قلـوب النـاس الكل في خوف من سـقوط البيـوت، من يدفع الخطـر القادم، إن تكـرر في الغد هطـول الأمطار لن تقف هذه البيوت منتصبةً مرةً أخرى، سـينال المطر مـن ثباتهـا المؤقت، لم يبق أمام الضعفاء إلا الهتاف باسـم «السـيد» أن يرحم ويخفف وطأة هذا البلاء.

(6)

أمْنـــيّـــةٌ

كل مــن اتصــل بالقرية من غير أهلها، جاء مصليــا، داعيا، مُضمرًا ما يخفيــه قلبــه من أمنيات شــحَّ الزمان فلم ينلها، هل ســيأتي الوقت الذي يجمع فيه أسماء هؤلاء؛ كل من قدم القرية ومات فيها ودُفن في قبورها وهــو من غير أهلهــا، كل من ترك القريــة ونزح إلى بلدة أخرى، اســتقر هنــاك، تــزوج و أنجــب، ربما مات فدفــن بعيدا عن منبتــه وأصله، ربما يأتــي زمانٌ يُذكــر فيه أهل الأمانــة والثقة والعدل والصــلاح؛ من وطئوا الأرض، هــل يُذكر الأطفال الذين ماتوا في صباهم قبل بلوغهم الحلم، مــن مات بعد صرخة الميلاد، مَن ســقط من رحم أمــه فتلقته يدا القابلة ميْتــا مخروســا من شــهقة الحيــاة، يُذكر ابن يــوم أو ابن يوميــن إلى ابن تســعين عامــا ومئة عام، مَــن مات دون علة، من غُشــي عليه ثم خرجت أنفاســه فلــم ترجع إلى صدره، من نــام ليلته ولم يســتيقظ، قلّبته زوجته فوجدته جسدا هامدا خاليا من روح تحركه؟

ربما سُمع خبر هؤلاء من طرق عديدة وبألفاظ مختلفة باختلاف رواتها، هل يمكن جمع كل الروايات واختيار أقربها للصواب مع استبعاد الكاذب الواهي منها البادي الاختلاق والفرية.

(7)

شَـــــرَرٌ

عادت ذات النقاب الأسود متدثرة بحيائها من نظرات الناس، آوت إلى حجرتها، انسالت عليها الذكريات هتفت في غيظ:

« آه لـو أراك يا ابن الزانية، تمر من هنا ولا أراك، تخترق الباب، متى يكون مرورك؟، التصاقك بالجدران، توزعك في أرجاء البيت، اعتلاؤك الأسطح، نومك في شقوق البيت، تكوّرك في لفة الشَعر الموضوعة في الشق، تعودتُ تركه بعد تمشيطي شعريَ، سأفقأ عين أمك لو جئت هنا، مـا الـذي يدعوك للتربص بي؟ ألا يكفيك تعنسـي؟ تركنـي الرجال من أجل سيرتك، لم يرغبنى رجل، رائحة الجن تفوح من حجرتي»

يتردد القرآن من الراديو القديم، تطمئن نِعمة إذ تسـمع إذاعة القرآن الكريـم، حتـى لو غاب الصـوت، يظل الوشـيش دون انقطـاع، يهدهد قلبها، يضمن لها عدم مجيئه.

مـع معـاودة البث يسـكن الهـدوء قلبهـا، تغفـو قليلا ثـم تجتاحها الذكريـات كطير يخنقه الهواء، عشـه يضيق به، لا يحتملـه، يود لو ينفذ عبـر أقطار السـماء، لـو يبدل الأوطان، يسـافر بعيدا بعيدا، إنها السـماء

نفسها، والأرض ذاتها، والأوكار التي ضمته طوال سنوات عمره، تثبتُّ عينيها في فراغ الحجرة، هنا جستها النار، تحسست مواضع اللهب، وانفجر الغضب من فوهة البركان، يروض الحواس المتخشبة، صرخة في قلب الليل فتهتك ستر الكون، طار الظلام وافترش النور ملاءة القلب المنكوء، دقت أجراس الصباح، وامرأة جديدة تسكنها، تطول ساعات نومها، عندما تستيقظ تنفض عن ثيابها غبارا تراه عالقا بها، مَن يراها لا يرى شيئًا، يتملكه العجب، لكنها تؤكد أنها مغمورة بالتراب، ربما روحها هي المغمورة.

تلك اللحظات يصعب تدوينها، كيف يتابع الهمهمات كيف يلاحق اللحظة تتلو اللحظة، ينفذ إلى أسرار تلك النظرة، يفسر الكلمة إذ تنطق مبهمة، مفردة، لا تعني شيئا، ولا تضيف جديدا.

القائم على أمر التدوين موصول بلحظات تفنى من الوجود وتركن للخلود، تثبت مخطوطةً ممهورة على الورق، ما من كاتب سيفنى، وما من كاتب إلا وله ذكر، كلٌ على قدر همته ونفاذها عبر سنوات الزمن الممتد، صوب الأبدية يمضي المتكلم ويبقى الكلام.

وقت انحباس الأنفاس، تُكتم الآهاتُ، يستتر المرء في سدول الليل، ضياع أصوات الصرخات في غياهب المجهول، حشرجة التدوين، وتشرب الورق للحبر المنساب.

اشتدَّ يأسها لما تكررت زيارات الجني، كيف لو افتضح أمرها، لن يصدق الناس أنه جني، سيقولون ارجموا الزاني والزانية، أخرجوا العانس العاهرة من بلدتكم.

تعلـو همهمة الجنـي فيجري المِـدَادُ متدفقا مسـجلا نظراته النارية حتـى انقداح الشـرر من عينيـه الحمراوين، انبطاح اليائس، واستسـلام القانـط، وعناد الجريح، وامتداد التدويـن لن يفي بما تعانيه تلك النفس المعذبة.

يا عمة جهاز الراديو لا يعمل.

اضبطه على محطة القرآن الكريم.

الملعـون الصغير يجرب كل المحطـات ولا يجدها، الكل يتلاعب بأعصابهـا حتى المؤشـر لا يقـر له قـرار، لا تثبت المحطـة، ولا يصفو الصوت

الجبل الغربي يشـوش على الإذاعات كما أن الراديو قديم، قديم جدا، اشترى راديو جديد يا عمة.

هل صحيح عمَّى سيد سيجيء قادما من السعودية.

في العَبَّارة سـيصل بإذن الله قبل انتهاء أيام المولد؛ لينال البركة، وتـراه جدتـك فتخف مـن مرضها، خمس سـنوات تـأتـى ليالى السيد بدونه، سيعود وسيملأ أيامنا فرحا، جدتك لو رأته ستشفي، لو توسـد حضنها، غفا بين ذراعيها، مـال على يدها فقبلها، حتما ستبرأ. عمك سيد طلته بالدنيا كما تقول أمي، أرهقها غيابه، بُعده عنهـا، انتفاء اليـد التي تربت عليهـا والعين السـاهرة لراحتها في خريف عمرها تحتاج لمثل سيد وحنانه.

آه لو لم يغب سـيد طيلة تلك السـنوات لتغير الحال ولبقيت جدتك بصحتها ولم ينخر الحزن قلبها.

أراك تحبينه أكثر من أبي.

عبد العاطي أبوك سامحه الله، يبغي المحال، يسعى وراء المجهول، قلبه كحجر صلد، لا يعرف الرقة واللين، لكم تمنيت لو كان هو الذي سافر بدلا من سيد ربما قنع بما تدره الغربة من أموال، لو قاسى اللوعة بعيدا عن الوطن، انهدت قواه كي تمتلئ يداه بالأموال، لكنها الخيبة، والأفئدة التي لم تمسَّها الرحمة فترق.

تعالَ يا سيد، واملأ حياتنا فرحا فقد ملأها أخوك هما ونكدا، تعال وافرش ضحكتك على شفاهنا الكالحة من قلة التبسم، بدونك الأيام صارت كالمياه تتسرب من بين أصابعنا دون أن ندري، تتغير أشياء كثيرة، نحن نحتاجك أكثر من أنفسنا، فلننتظر حتى تعود إلينا.

(8)

نُــــهَــــى

يَطْرقُ سالم الباب عدة طرقات، تفتح، يبدو وجهها كعادته دائما مبتسما، يخفي وجيب قلبه، ينعقد لسانه لحظة قصيرة، لم يتوقع أنها ستفتح هي الباب، غاب عن باله أنها دائمة المكوث في المنزل ملازمة لأمها المريضة لا تخرج إلا نادرا لزيارة قريبة أو صديقة أو تذهب لأختها نِعمة وسرعان ما تعود وتبقى أياما طوالا ملاصقة لأمها.

نُهي الصغيرة الحلوة شبَّت ونضجت أنثى، قاربت العشرين إلا قليلا بجسد متناسق، بسمرة خفيفة تميز قسمات وجهها، يبرز نهدان صغيران في طريقهما للنفور، عينان ضيقتان في وجه تؤطره الابتسامة، عيناه تمتلآن من ذلك الوجه المدوَّر، تُطرِق، نظراتها بينه وبين الأرض، في خجل طفولي تبدو أجمل، كثيرا ما كان يراها وقت أن كان يأتي لزيارة صديقه سيد قبل سفره للسعودية، كانت تنمو أمامه، تكبر، وهو لا يشعر أن تلك الطفلة ستملك قلبه ذات يوم، كل يوم تتلبسها الأنثى وتغادرها الطفلة التي كانتها، رويدا رويدا، ملأت قلبه ضحكتُها، ما زالت ترن في أذنيه، لا ينسى لؤلؤ أسنانها عندما تتبسم، تقافزها وسط

صاحباتها، ذكريات من الزمن المُولِّى تغزو ذاكرته، يراها تجري، تنادي أحدا، تسلم، تحيي، تنسى جسدها، يحركها العقل الطفولي الساذج.

كيف حالك أستاذ محمد؟

الآن لا يراها إلا كل عام ، لا تغادر أحلامه طيلة العام، ربما يأتي إلى القرية في المولد ليلقى الشيخ عبد العال ويزور «السيد» ويراها.

أهلا يا نُهي.

سمعت أن سيد سيأتي.

نعم سيأتي في العَبَّارة القادمة من السعودية.

تصمت فيوَدُّ لو تَواصَلَ الحديثُ بينهما، بصوت فيه بُحة محببة إليه تناديه يا أستاذ احتراما منها لفارق السن بينهما.

سألها عن أخيها عبد العاطي، قالت» إنه جاء من الصلاة ثم نام، عبد العاطي حاله مضطربة ينام نهارا ويصحو ليلا».

أراد الاستفسار، التوضيح، شيء غامض في حياة عبد العاطي، بدا كلامها في هذه المرة مقتضبا، تخفي شيئا؟ شعر أنها تريد الكلام، لكنها تخجل من وقوفها أمام باب المنزل مع رجل غريب، قال إنه سيأتي عندما يستيقظ، أيضا كي يرى الحاجة أم سيد.

يُطَوِّق قلبَه همٌ ،وخزاتُ ألمٍ خفيفة كأنها زخات السعادة المؤلمة، تُغلق الباب، فيغادره شبحُ جسدها، قطعة قطعة، جزءا جزءا، فقط يبقى وجهها في مخيلته، ينسحب الجسد متواريا خلف الباب، الوجه المكتمل بورد البسمات المشرقة، يتمنى لو يجالسها، تهمس لها دقات

قلبـه، يشـم عبيـر عباءتهـا السـوداء، تُبديها كغـادة حسـناء تضفي على جمالها جمالا آخر له مذاق استثنائي.

علـى ركـنٍ في المقهـي يجلس سـالم يغمـض عينيـه، يضغط على ذاكرتـه، يسـترجع أيامـا لها رجع شـجيّ، يهتـز إذ يتذكر صديقه سـيد، سـنوات الغربـة فرقتهما، متـى يجتمع شـملهما؟ يزوره كثيـرا كما كان يفعـل، يـرى أخته نُهي، فكر قبل ذلك بالزواج من ريانة ابنة الشـيخ عبد العـال، لكنـه لـم يجـرؤ على تخطى عَقبـاتٍ مُعْجِزَةً، رجـل أمره محير، حياتـه كلهـا لغز كبير كيـف سـيُحدِّثه في أمر خطبـة ابنته، هـو أيضا لـم يرها، لم تملأ قلبه مثلما ملأته نهي، نعم يبغي القربى من الشيخ التماسا للبركـة، لكن لا يدري ما الذي سـوف يحدث إذا غضب الشـيخ، لعنه، سـبَّ اليوم الذي رآه فيه، إذن فليلبِّ نداء قلبه ويتحدث مع سيد في أمر خطبة نهي بعد عودته.

«الحلوة»، «الصغيرة» هكذا كان يناديها أخوها، تعالَ يا صديقي، لم تعد أختك صغيرة، صارت حلوة أكثر وأكثر، القلب لم يعد يحتمل.

أشياء كثيرة نفقدها عندما نفقد أحبابنا، ما يبعدنا عما اعتدناه وألفناه، قلوبنا لا تنسـى من سـكنها يوما ما ولبث فيها يبث السعادة، هل ستعود أيام الفرح والسـعادة ويلتئم الشـمل مرة أخرى؟ «هـذه القرية أحببتها، ربما أكثر من أية قرية أخرى، ربما أكثر من قريتي نفسها، أحببت أهلها، شوراعها الضيقة، جوها الغريب، تقلُّب أحوالها».

في مواضعَ شـتى رآهـا، مرة تجهش بالبكاء، عيناهـا محمرتان تكاد تسـيل مـع الدموع دما يـوم نجحت فـي الشـهادة الإعدادية، قـرار عبد

العاطـي بعـدم إكمـال تعليمها، يكفي ما نالتـه من التعليم، وفـي النهاية ليس لها سوى بيت زوجها، فما فائدة الشهادات؟!

يومهـا انخرطـت فـي البكاء، كادت تهلك أسـى، أن تلـزم البيت لا تغـادره، وصاحباتها يذهبن ويجئن من المدرسـة، يتلقيـن العلم، وهي تكتفـي بالإعداديـة، مع عناد عبد العاطي لم تسـتطع توسـلاتها أن تثنيه عن عزمه.

في موضع آخر رآها بعين خياله تحيك ثوبا لأخيها سـيد هذا الثوب أهداه سـيد له بعـد ذلك، ثوبٌ صنعته نهي، حاكته أناملها سـهرت عليه الليـل قَضَـتْ النهار تضـم الخيط إلـى الخيط، تقـص القمـاش، تُعِدِّلُ المقاس، كي يناسب جسد أخيها، لم تعلم أنه سيؤول لمن سكنت قلبه، يحتفـظ بالثوب لم يلبسـه، إلا نادرا، يخشـى عليه أن يَبلـى، إنه الذكرى الباقيـة منه ومنها، يسـتحضر أول مـرة ارتداه فيها، لحظـة بعينها أطلت ففاضت السعادة على شفتيه.

الموضع الثالث وجدها تبكي بحرقة، كأنها تنعي ميتا، تزرف دموعا على راحل، تنطق باسـم فتاة، لم يتبينه، لم يعرفه، من هي بالضبط؟ من تلك المنْعَيَّة؟ أهي من قريباتها؟

أمهـا تنـازع الموت، أحسَّ أن هذا البكاء لامـرأة لم تمت بعد، أيرى بكاءها عبر ضباب الغيب؟ هل تخصها تلك الفتاة حتى يراها مطموسـة العينين بالدموع. انتبه فجأة على صوت النادل يصيح به يسأله ما يرغب في شرابه.

أي علاقة بين تلك المواضع التي رآها في حلمه القصير، فرك عينيه، تذكر يوم ودَّع سيد وعاد حزينا كاسف البال إلى بيته، وقتها لزم حجرته، فرض على نفسه عزلة أحس أنه بانسحاب من يحبهم، وابتعادهم عنه روحه تنسحب منه وتودعه.

يتذكر ما حدثَ بعد وفاة أمه، وحيال تراكم الأحزان على قلبه، لزم حجرته لم يغادرها، خاصم الحياة، قطع أسباب الوصال مع الواقع من حوله، اقتصر على طعام واحد؛ كي تظل أنفاسه تتردد في جوانبه، لم يُطالع الكتب التي أحضرها له سيد، ظل ينظر لها وهي متكومة في ركن الحجرة التي غابت عنها الشمس وهجرها الهواء، ضوء المصباح الضعيف يظل مُضاء دون توقف كانت حياته موزعة بين النوم لساعات طويلة، والاستيقاظ لساعات طوالٍ، ألحَّ عليه سيد طلب منه الخروج من عزلته، لكنه كان متوحدا بحزنه، خلق عالما من الأخيلة والأفكار عايشها لحظة بلحظة وشعر بمرور الثانية عليه، في كثير من الأحيان، كان يخيل إليه أن بإمكانه أن يُوقف الوقت ويتأمل الدقيقة التي تمر وما تحمله من معانٍ وأحلام، وفيما لو كان يمكنه أن يُحقق ما انفلت منه في الواقع، ثم يُطلق الوقت من بين تأملاته أو ينسحب منه الوقت فلا يعرف غروبا من شروق تحت ضوء المصباح الكابي، بدأ المصباحُ يَضعفُ، يخفتُ ضوؤه، يشح إلى درجة أنه بدأ في إرسال ضوء باهتٍ يبعث على الكآبة، توحَّد مع ذلك الضوء أو بقايا منه تشهد على وجوده مفترشا جوانب الحجرة، أحس أن نفسه تغوص في بئر لا قرار لها، كان يحتاج لبعض الوقت كي يُخلِّص نفسه من هول ما شيدته من حواجز تجاه ذلك الواقع ووطأته المريرة، طال الوقت حتى امتدَّ لشهر ونصف، ظن

أن الحيـاة تمتنع عنه كما يمتنع عنها وأن الموت أصبحت خطواته قريبة منه، نحل جسده حتى اتسعت ملابسه فيما كان وجهه يواصل الامتلاء، تحسـس وجهه المنتفخ، ولحيته الكثة بدا قريب الشـبه بكائن لم يُخلق بعـد، لـم يحمل مـا حمله مـن حزن، نظـر لصورته فـي المرآة، اقشـعر جسـده، تقززت نفسـه، بصق علـى صفحة المرآة وهتـف لاعنا العزلة، لـم يتحمـل تلك المسـاحة الصغيرة التـي اُختصرت فيهـا الحياة، غادر الجـدران الأربعة، فتح نافذة الشـرفة، اسـتقبل أول ضـوء طبيعي يمسُّ وجهه منذ يوم اعتزاله، لم يداهمه الضوء وكأنه كان ينتظره، يَشتاق إليه؛ حتـى أنه أحـس أن روحه تحتضن النسـيم الذي يحمله الهـواء، خطوة خطاهـا، وجد نفسـه واقفا في الشـرفة والكون متسـعٌ أمامـه، تلخصت الأشـياء التـي رآها من حوله فـي صورة، جُمعـت أمام عينيـه، وبحنين الملهـوف، قبَّل الصـورة، كانت رموش عينيه ملتصقتيـن، وبنفاذ الهواء والضـوء بـدأت في الانفصال، تخلـل الهواء مخترقا مسـامه، جاريا في أروقة جسـده، يشـق له طريقا وسـط أكـوام الإحباط والعزلة والشـجن والأفكار المسمومة عن العالم والناس من حوله، على أجنحة خيالات الآلام التي فُرشت بطول روحه، استسلم لنداء العالم، كان الجو صحوا والشـمس تملأ الكون بصفرتهـا، ملأ رئتيه من الهـواء، جذبه بعيدا عن قوقعته، أسـلم نفسـه لصديق عمره، كان لا يتوقع جديدا يأتيه أشدَّ حزنا مما مضى، بعد أن تلوَّن شـعره بشـعرات بيض تخللت رأسـه، الشـرفة كانـت هـي البداية ثم إلـى عالـم ذلك الصديـق، أعاد له كتبـه، أخبره أن كل هذه الكتب لن تنفعه في شـيء، لن تستطيع إيقاف نزيف آلامه، كان يظنهـا مخدرا، وَهْما يسـتطيع دخول عالمه، يسـتأنس بمـا يخلقه له من

راحة ولو مؤقته، تأكدت خيبته بعد أن زار المشيب رأسه وهو بلا زوجة ولا أولاد يحملون ذلك الاسم، حمل طيلة عمره اسم والده، يا ليد القدر التي لا تقسو دائما إنما تؤلم أحيانا وتأتي يدٌ أخرى فتمسح عن النفس بعض ما خلفته الأولى من آلام.

ظن سيد أن اقتلاع صديقه من بئر عزلته أمرا مستحيلا بعدما كثرت محاولاته دون جدوى، وجد سالم الأسباب الكافية لتأكيد انتمائه إلى عزلته، بدت محاولاته في الفترة الأخيرة أنها في طريقها للتحقق بعدما أصاب سالم الملل، لكن شيئا غريبا أصابه، أصبح كثير الشرود، دائم التأمل، حنت نفسه إلى السماء، فتبع خُطى الشيخ عبد العال، يلقاه في كل عام في مولد «السيد»، يستمر تأثير لقائه به ساريا في روحه طيلة العام، وعلى رغم تقلباته ومزاجه الذي لا يقر له قرار إلا أن نفحة ربَّانية مَسَّته، كانت تجذبه، فيسكب دموع الحسرة والندم، يغتسل بتوبته من الآثام، كان يحس دائما أن شيئا ينقصه، وإن لم يدرِ كُنهه إلا أن أسباب قلقه الدائم لم تكن خافية عليه، تلك الأحزان المترسبة في قاع نفسه، تأبى الرحيل، وجراح قلبه التي لم تعرف البُرء يوما، وإن استطاع النسيان أن ينال من ثِقلها عليه، ويشذب فروعها، يقص جذورها التي تنطلق مغروسة في حنايا روحه، وتحدُّ من امتدادها في أعماقه، أسكت أصوات الجراح التي تنعق بداخله، أصغى لنغمات الكون من حوله، انغرس في صحبة سيد، فعظم قدر ذلك الصديق شُفي قلبه، وبَنى في نفسه صرحا من الود والألفة ربطت قلبيهما بحبل لا تقدر الأيام على قطعه، رغم بعده واضطراره للسفر ليشتري بغربته سعادة أسرته.

خيالـه العليل لا يجلب له سـوى تلك اللحظـات التي تُزلزله وتهزه كعصفور ذبيحٍ يشتهي خَلاصه.

انطـوى على نفسـه، توحّد بألمه وحزنه، يرى سـيد بعيني خياله في عمله في السـعودية، يكد، يشـقى، سـعيدا مرة، وأخرى حزينا، ترى ما الذي يفكر فيه الآن؟

هل يضحك؟ يبكي؟ يشتاق لجلساتهم، لأيام الطفولة والصبا؟

تحـوم في رأسـه ذكرى نُهي، بسـفر سـيد صارت رؤياهـا ضربا من الوهم، انسـحق داخل ذاتـه، يجتر ذكريات مرت، أوقـات لهو لن تعود مـرة أخرى كأنها ما كانت وما مرت، أحس بعكارة في روحه بعد شـهر من العزلة، تتبدل الأيام، تمر الساعات، تُدفع الساعات وهو في قوقعته، تيقـن أن لا فائـدة ترجى، وأن لا أمل يرتقب، شـعر أنه ممثل تعس على مسرح بلا جمهور، فاشل في أداء دوره؛ ذلك الدور الذي لا يراه إلا هو، هو النظارة والممثل في الوقت نفسـه، بسـط كفه، أشـار بإصبعه لسقف الحجـرة، صـوب المصباح المضـيء كآبة الضوء المنتشـر في الحجرة المغلقة بالرطوبة والسـكون، تنشع منها رائحة العتمة التي تسكنه، شهر بأكملـه مرَّ عليه يرقبه يوما يوما وسـاعة سـاعة، وقعه فـي كل يوم تزداد وطأته عليه، ثقل الهم عليه أصبح لا مفر إلا بتمزيق الشـرنقة والخروج للحيـاة، الحيـاة أرحب من القبـر الضيق الذي يطبق على أنفاسـه فيكاد يجهز على حياته.

لم يستطع يوما أن يوقف ثورة ذاكرته، ذاكرة نشطة وأحلام معطوبة، كيـف أن يمنع انثيال عذابات خيالـه؟ الذكريات التي تطارده أنَّى رحل، وكمـا تجري الأقلام هناك علـى الصفحات كانت تلـح عليه الأحداث

التي مرت عليه، وتطأ تلك الذاكرة مقتفية أثر الأماكن التي قرَّتْ محبتها في قلبه.

نداءات الدنيا لم تعد ذات إغراءٍ كما كانت من قبل، ليس أشق على نفسه من أن يلقى أناسا لم تصلهم معاناته وآلامه، ليس من السهل عليه أن يصحب نفسه وآلامه ويحادثها محادثة الصديق لصديقه، ومع انعدام الصحبة تصير النفس قِبلة يحدوها أمثاله من المتوحدين.

من وحدته يخرج وبوحدته يواجه الحياة، يرى الدنيا من نافذتين مضيئتين؛ سيد ونُهي، اُختزل الرجال في الأول واُختزلت النساء في الثانية، في السماء يرى أسراب النجوم قلقة محيرة تزعجها أصوات الصخب والجلبة التي يحدثها روّاد المولد، المريدون جاءوا ليرتزقوا وليعرضوا بضائعهم لمن يرغب العودة إلى أهله محمَّلا بأطيب الأطعمة، وشتى أنواع الحلوى.

ليس لديه زوجه تقلق عليه، ولا أبناء ينتظرون عودته، قلبه وحده الذي ينتظر الأمل، نداءات الباعة، صوت اصطخابهم، صياح أول ليلة من ليالي السيد، ما زالت الحناجر في قوتها لم تضعف بعد، لم تسهر العيون لليالٍ متواصلة، لم تتوسد الأجساد الأرصفة، وأسفل الجدران، أول ليلة من ليالي السيد كل شيء ما زال جديدا، غضا لم تنله أيدي الآثمين.

(9)

غـلْـظـــةٌ

قابله بوجه مظلم، عينان زاد في ضيقهما أثر النعاس، كان قد استيقظ لتوِّه من النوم، سلامه عليه كان فاترا حتى الذراعان اللذان التفَّا يطوقانه، كانـا متراخيينِ، يعرف برودة عواطف عبـد العاطي، لم يتصل بينهما وُدٌّ أبـدا، وحده الـذي كان يجمعهما سـيد، في كلمات عبـد العاطي غرابة ملحوظة، شـيء ما يخفيه، قالت نُهي: إن حاله مقلوب ما الذي جرى؟ خلف عينيه تختبئ ملايين الأشـياء، نظراته زائغة لم يمتلك حق سـؤاله عن سـبب تغير حاله، اختلاج شـفتيه، توزع نظراته في قلق، أشـار بيده اليمنى التي تحمل بين إصبعين سيجارة توشك على الانتهاء إلى اليمين لا حيـث يجلسـه دائما فـي المضيفة، في اليمين يعـرف أن هناك حجرة سيد التي كانا يقضيان فيها معظم أوقاتهما، فما الداعي إلى أن يشير إلى اليمين؟

تخطى العتبة، تجاوز الباب، ولج البيت وكأن البيت هو الذي يلجه، بادرته رائحته التي يعرفها، ما إن خطا خطوة إلى الداخل حتى تذكر سيد ونهـي، نظر نظرة أحاطت بالبيـت، تيقظت مكامن الذكريـات، الذاكرة

المتوقـدة دوما، في البيت حضور قوي للذكـرى، تثاقلت خطواته وهو فـي طريقه للحجرة، «أوحشـتك حجـرة صاحبك» نطقهـا عبد العاطي بضيـق واضح، إدخاله للحجرة يدل علـى أنه يريد أن يبعده عَمَّا يحدث داخـل المنزل، هل يكون عرف ما يكنـه لنهي فأراد إلزامه في حجرة لم يدخلها منذ سـنواتٍ؟ ولكن كيف له أن يعرف؟ وهو لم يبح لأحد بهذا السر.

ما إن دخل الحجرة حتى تسلل الحنين إلى قلبه، قشعريرة سرت في جسده، كم من الأعوام مرت ولم يدخل تلك الحجرة؟ كم من المرات تاقَ إلى تلك الجلسـة المحببة مع صديقه، الرائحة نفسـها التي يعرفها، زحفت العتمة فأعمت عينيه، أغلقهما، العتمة هناك في روحه ليس فقط هنا، بحث عـن مِفتاح الإضاءة، أخبره عبد العاطي أن المصباح معطل، «دقائق معدودة أعود بمصباح جديد»

«مـا أشـد غلظته» مـا إن ذهب حتى شـعر بأن روحه تخـف، كأنه لا يلامـس الأرض، خفيف الوطأة، لا يشـعر بجسـده، لم يعـد قادرا على المقاومة والوقـوف، اتَّكأ على الجدار، مال قليلا، بحثت يده عن مقعد كي يسـتريح، تراب ناعـم التصق بباطن كفه، عَلَتْ نظرتـه تَرَقُّبَ الرؤيةَ بعـد انجـلاء الظلمـة التامة واتضاح الأشـياء مـن حولـه، الأرفف التي تحوي الكتب، أغلب الكتب تركها سـيد، لم يأخذ معه إلا القليل، يعلم أنَّ فـي بـلاد الغربة لن يجد هنـاك وقتا ينفقه في القـراءة كما كان يفعل، سيضاعف ساعات عمله كي يرسل إلى أهله ما يحتاجونه.

عاد عبد العاطي حاملا مصباحا جديدا أبدله بالقديم أنارت الحجرة، اتضحـت معالمها، خيوط العنكبوت نسـجت في كل مـكان، حَرَّك يده

المتكئة على الجدار، أزاح إطار صورة معلقة، سقطت على الأرض، تهشَّم زجاج الإطار، طفر عنكبوت فجأة، مَرَقَ عبر المقاعد، مال ليرى الصورة، انغرس الألم في نفسه، غزر الدمع فجأة فملأ أجفانه، كأنه كان مهيئا للبكاء، كانت صورة لسيد، كادت تتمزق، شهق ما إن رآها، تكلم عبد العاطي بكلام لم يسمعه، ما أثقل كلامه على نفسه، تبعثرت نظرات عبد العاطي كأنما يود أن يغادره، استجمع شتات نفسه وقال متماسكا:

ألم يدخل الحجرة أحد منذ غادرها سيد؟، ألم تنظفها نُهي.........؟

اترك نُهي في حالها، تقدم لها رجل ليخطبها........ ننتظر قدوم سيد ثم نزفها إليه.

تغيم الرؤية للحظات، لا يرى أمامه إلا شبح عبد العاطي، يراه حجرا صلدا، معتما، نهي ستزف إلى رجل رجل يكرر العبارة، لا يصدق، قريبا

أي قريب؟ أي بعيد؟ أين أنتِ نُهي؟

ما جدوى كلامي مع رجل طُبع على الجفاء؟! جُبِلَ على هدم الأمنيات؟ وغلق النوافذ المشرعة؟

بدا الأسى على وجهه، لم ينطق بكلمة، لم يدر ما يجب أن يقوله في تلك اللحظة، ضاق صدره، في حركة مفاجأة وقف، طلب منه المغادرة، تعلل بأمر مهم تذكره، ارتياحٌ بدا على وجه عبد العاطي، في مجاملة أخبره أنه لابد له من العودة ليبيت هنا، ستُنظف الحجرة، وإلى

حين عودته ستكون جاهزة، للمبيت، وتكون الحاجة أم سيد استيقظت لتسلم عليها.

عبد العاطي يلوكُ العبارات، يخرجها كأنها زفرات ملتهبة، لم يعرف يوما اللطفُ ولا اللينُ طريقا إلى كلامه، روح سالم غاصت في قرار بعيد من الأمنيات الزائفة، والأحلام الكاذبة.

شهدَ عبد العاطي الصعود إلى أعلى دون كد، تنفس بارتياح عندما غادر المنزل كأن همًّا ثقيلا رحل عن صدره، كان يضيق بكل غريب هذه الأيام، يريد إتمام مهمته، من يأته يعكر صفوه، الأمر في طريقه إلى التمام، كثر الكلام، والقيل نذير شؤم، ألسنة الناس لا تكف عن الثرثرة، العيون المرتقبة في تتبعها الدائم لكل داخل وخارج من المنزل، مَنَّى النفس باقتراب الأمل وظل ينتظر القادم.

يدخل سرداب حزنه الشفيف، يستسلم تماما لقدميه اللتين تسيران به دون وجهة بعينها، لا يحاول الضغط أكثر على ذاكرته. كل شيء يبدو ساكنا سوى قدمين تسيران في اللحظة التي سمع بخبر زفاف نُهي.

كان التدوين يسري في أقصى نشاط له، تنثال الكلمات بسرعة تحاول تتابع وقع الحدث عليه، صفحات كثيرة امتلأت، ما زلنا في الليلة الأولى، للحوادث آثار مختلفة، كل منها مغاير للآخر، قد يشبهه، لكنَّ الأثر مختلف والنتيجة ليست واحدة، هناك أحداث تمر من فرط أهميتها، من شدة وقعها وطول ما تحدثه في النفس من غور عميق، بئر سحيقة يهوي فيها الفكر شاردا، لا رادّ له عن رحلته، يواصل غيَّه، مع ألم وطأة الواقع، قسوة قبضته يفر لعالم آخر موازٍ له، ربما أجمل، ربما أفضل قليلا، قد يأتيه ناسيا ما قد حدث له، ما آلمه، أوجعه، وصَبَّ

فـي حلقه المرارة، ينأي بعيدا حيث تسـكن النفس، لا قرار لها في ذلك العالـم البعيـد، عالـم يخلقه الخيـال، عبر خيـوط الدخـان الزرقاء، في طيات كتاب تُقضى سـاعات الليل تُقلب صفحاته، في جسد امرأة ينوح على مشـارف عالمها كي ينسى، ينسـى ماذا؟ حشرجت أصوات حوله فـي كـون خالٍ من القربى، ما من يدٍ تربت، ما من عين تدمع، ما من أذن تصيخ السـمع، تطيب الخاطـر، غاب الحِضن الذي يلمُّ شـعث العمر، يسـرع الخطى في عالم يفترضه رأس مثقل بالفكر، أدار ظهره للحظاتِ تداعـى ذاته، وترنحهـا، عدا خلف مجهول، مخلـوق عملاق، خرافي، رمح .. رمح كاد يسقط ... .

(10)

نَـــفْـــحَـــةٌ

حَلَّتْ بركة الليلة الأولى، هدأ وجيب قلبها، طمأنينة حلَّت في روحها، توسَّدتْ السكينة قلبها، مسَّتها نفحات هذه الأيام؛ لله أيامٌ اختصها ببركته، تصفو الأرواح فيها، تغفو الوساوس، يصمت النعيق في الآذان، تحاول أن تغنم من تلك النسمات التي تأتي لِماما، ترغب في شفاء روحها المعطوبة، أكدار تراكمت عليها، تودُّ التخفف منها، النذور معهودة للسيد، البُرءُ قريب، السيد لا يردُّ يدًا دعتْ ربها، أخلصت في توددها، بكت من فرط خشوعها، توسلت بأمير الأنبياء محمد - صلى الله عليه وسلم - صفوة الباري، هدية رب العالمين ورحمته لعباده، تُغلق باب منزلها الذي تسكنه بمفردها منذ ملأت روحها الوساوس، وهي تلزم ذلك المسكن الملاصق لأخيها عبد العاطي، تزور أمها وأختها الصغيرة على فترات متباعدة، تلزم حجرتها، لا تغادرها إلا عند الحاجة، يزورها حسن ابن أخيها، يسألها عن شيء تود شراءه، يصلح لها الراديو القديم، يضبطه على إذاعة القرآن الكريم، يجلس معها، يحاول أن يخفف عن عمته المسكينة، يعرف داءها مثل بقية أهل القرية

رغـم صغر سـنه، لو يملك دواءً لها، يدًا تمسـها فتعود كمـا كانت نعمة العمَّة الجميلة المرحة.

تعلـم نعمـة مـا يفعلـه عبـد العاطي فـي منزلـه، تعرف عقوقـه لأمه المريضـة، تمنيه الخلاص من أي شـيء يقف عقبة أمـام طمعه وعناده، تجـد الخـلاص مثلها مثـل الباقين في رجوع أخيها سـيد، تُمنِّي نفسـها بقرب قدومه، يحمـل بين ذراعيه الدفْء والحنو اللذين افتقدتهما طيلة سـنوات غربته، لو تغادر ذلك المنزل، ترحـل عنها اللعنة التي أصابتها، لـو يتركهـا ذلك المنكـود، لو رجع أخوها سـتغادرها النفس الشـريرة، قلبُ سـيد وحنانه يسـتطيعان أن يمحوا كل شـر من عالمهـا، دعت في صلاتها أن يصل أخوها سـالما فتنعم بقربه، يده الحانية، نظراته الدافئة، سيد شمس تضيء حياتهم، نورٌ يجلو ظلمة نفوسهم، ستكتمل بهجتهم بعودتـه، سـتعرف الأفراحُ طريقها إلـى تلك العائلة؛ الحـب الذي ينثره الأخ الغائب يملأ قلوبهم، فقط تذكُّره يعدهم بأحلام سعيدة وأن الحياة ستسـتمر بشـعلة الوُد والمحبـة، ربما لـو كان موجودا بينهـم لترك عبد العاطـي مـا يهمُّ أن يفعله، يـرِقُّ قلبه قليلا، لا يظل سـادرا في غيِّه، ربما تتغير أشـياء كثيرة، كلها سـاعات ويأتـي فلننتظره جميعا، العبَّارة تشـقُّ عُباب البحر تَقطع أمواجه قادمة إلى الوطن حاملة الأحبة.

(11)

الخَطيْئَــــةُ أُنْــثَــــى

الزحـام والضوضـاء لا يبـدِّدانِ خوفًـا ولا يجلبان أمنـا لقلب ذبيح تراشـقت سـهام القدر فأدمته، الطمأنينة والدفء الروحـي بعيدان عنه، بدا الحب كأسـطورة خيالية يسـمع عنها ولا يُصدقها، تُروى على ألف لسـان راوٍ وما من مُصـدِّق؛ هو الحقيقة الكاذبة والكذبـة الحقيقية التي تلوكها الأفواه.

بعلمـه بزفاف نُهي انتهي حلم جميل طالما لوَّن خياله بألوان زاهية، لكم اسـتعاد لحظات مرحها أمامه، تقديمها الشـاي والطعام له ولسيد، حديثهما عن أمنيات المستقبل، اجتهادها في الدراسة، تفوقها المحدود الـذي اجتثه عبد العاطي بإنهاء تعليمها عنـد المرحلة الإعدادية، ما ألحَّ عليه كثيرا وراود مخيلته رؤيتها ضاحكة أكثر من مرة؛ وبأكثر من طريقة، أيضا حجابها المطوِّقُ لرأسها الصغير، انحداره صوب عينيها، تفاصيل تلك الأيام لا تغادر ذاكرته، انحنى ببصره إلى أسفل، حدَّث نفسه بكلام لم يسمعه إلا هو.

«سـامحيني يـا نُهي، لـو كنت عجَّلت فـي خِطبتك، كانـت الفرصةُ مُتاحـةً أمامى بتـرددي ضيَّعتها، شـواغل كثيرة ألهتني حتـى تبدد العمر وانفرطـت أيامـه، كنـتِ قريبـة مني حـد الامتلاك، لـم أتصـور يوما أن تصيـري لغيـري، كنـتُ أراك صغيـرة تكبريـن أمامـي ولا يـراك أحـدٌ غيـرى، كيف يقطف الثمرة غير الذي سـقاها ورعاها حتى نبتت أمامه، سـامحيني، سـامحنى يا سـيد، عزائي أنك قادم، ربما تخفف بعضا مما لقيته في سـنوات سـفرك، قلبـى الذي أُجهـز عليه من تراكـم الأحزان، وفقدان الأحبة وتوارى الحظ»

أخذتـه خطواته حيث تجمعَ الناس حول المنشـد، اندسَّ وسـطهم وترامى إليه الصوت.

جَمل حداه ألم تحت الحمل مِدَّاري

لا الجمل بيقول آه ولا الجمَّال بيهَ دَارِي

دَارِى على بلوتِك ياللى ابتليتْ دَاري

تصايـح الرجـال المتحلقـون حول المنشـد، ازدادوا نشـوة مع كل وقفـة، آهـات الإعجاب تخرج من أفواههـم، كان الجمع يزيد عن مئة، غدًا في الليلة الكبيرة سـيلتف المئات حول الشيخ ياسين، يأتي كل عام في ليلة الختام «الليلة الكبيرة»، هناك من يأتي من أقاصي البلاد يقطعون مئات الكيلومترات.

البين عَملني جمل وانْدار عَمل جَمَّالْ

ولوى حزامي وشيَّلني تَقيل الاحْمالْ

قال لي رِق الخطاوى يا جملْ واmشى على مهلك

ده كل عقدة ولها عند الكريم حلاّلْ

تناثـر علـى جانبي الطريـق بائعو الحمـص والحلـوى، كلٌ يعرض سـلعته بالغناء، يؤلف أغنية تناسـب السـلعة التي يبيعها، يروِّجها بتلك الألحـان، يجـذب آذان المـارَّة، أقواهـم صوتـا من تجد النـاس ملتفين حولـه يريـدون الشـراء، يحثونه علـى خفض السـعر أو زيـادة الكمية، المولـد حياة ورزق وفير، يقـف البائعون على أقدامهم طيلة أيام المولد ولياليـه لا ينالـون إلا قسـطًا قليلًا مـن النوم يكون بعد الفجر مفترشـين المكان الذي يبيعون فيه.

أهل القرية أناسٌ كرماء يجودون على هؤلاء الباعة الغرباء بوجبات تُقدَّم لهم في أيام المولد، والبعض يفتح لهم بيته كي يستريحوا ويأكلوا طعامًا دسـمًا ثم يناموا وقتًا يسـيرًا، أيضا يوجد في بيوت الموسرين بها حجـرات مخصصـة لمبيت الزائريـن الغرباء من غيـر البائعين، دون أن يعرفوهـم وبدون مقابل مالـي، الكل يلتمس بركة تلـك الأيام، لا يُمنع زائـرٌ، ولا يُصدُّ سـائلٌ، دمـاء الماشـية المذبوحة صباح ثانـي يوم تراها مُراقـة في الشـارع المؤدي إلى المقام، الشـارع مُتسـعٌ في أولـه، مُتْرَبٌ يسـمح للأرض أن تتشـرب الدمـاء فلا تبقى، هـذه اللحوم تُـوزع على الفقراء والمسـاكين، وبعض أقارب الموسـرين من القريـة، منها يكون منذورا ومنها ولائم للغرباء، رائحة اللحم المطهوِّ لا تخلو من أي بيت،

رائحة الخبيز قبيل الظهيرة، الأرغفة الساخنة الخارجة من الفرن، كلها شواهد وعلامات على بركة ليالى السيد.

يكثر الشحَّاذون، يلتمسون نصيبهم من الأرغفة وأكياس اللحم، البعض يطمع في الكثير يرسل ابنا له بعد ذهابه هو يطالب بكيسٍ آخر، الجوع والحرمان طيلة العام يُلجآن الكثير لتخطي المألوف ومَلء البطون فوق ما تحتاجه.

ينتشر اللصوص ويَكونون غالبًا من الوافدين والغرباء، يدخلون البيوت في تَخف يأخذون أي شيء تقع أيديهم عليه؛ ما خف وزنه وغلا ثمنه، بعض الصغار من أولادهم يسرقون اللعب من البائعين.

يأتي في كل عام جماعات من الغجر يقيمون في أرض خالية بها أشجار السدر، يستظلون بها، ينصبون خيامهم، في عربات يأتون محملين بأدوات الاحتفال من أعلام وألوية ودفوف وطبول كبيرة، أردية حمراء وخضراء، زجاجات عطر ذات رائحة نفَّاذة وغريبة، يرشونها على رؤوس المارين، يستوقفون الناس يطالبونهم بأموال تَسُدُّ حاجتهم، منهم حواةٌ يجلبون الحيوانات معهم كي يقوموا بألعاب بهلوانية؛ خاصة الثعابين والقرود، أدوات لهو وطرب، يشعلون النيران ثم يطفئونها ببصقةٍ من أفواههم، ألعاب كثيرة يمارسونها كي يجذبوا الناس مقابل نقودٍ يأخذونها من المشاهدين لهم، أكثرهم لصوص وقوّادون، وشحّاذون، يطوفون البلاد من مولد إلى مولد ومن قرية إلى

قريــة، لا يقرُّ لهم مكان ولا يُعرف لهم وطنٌ، نســاؤهم يعملن راقصات في الأفراح وفي الاحتفالات التي تقام في ليالي الموالد.

من بين الخيام المنصوبة كجبال صغيرة منتشرة هنا وهناك انسحبت صابريــن بهــدوء وتؤدة، أكملــت زينتهــا الخفيفة، حاولت إبــراز مفاتن وجهها متحدية سمرته الغامقة، بعد تعديلات كثيرة لمع وجهها كصفحة الماء المنعكسة عليها أشعة الشمس، كانت ترتدي عباءة واسعة إلا أنها ضُيِّقت من الوســط، تُبرز اكتناز جســدها واختلال تناسقه الذي أضاف على جسدها إغراء ملحوظا في مشيتها وتثنيها.

تأتي صابرين مع أهلها من الغجر كل عام في أيام المولد، لها أخوان كبيــران، أمها كانــت تعمل راقصة فــي الموالد، مع تقدم ســنها اعتزلت الرقص ولـم تسـتطع أن تقنع ابنتها باحتراف مهنتها أيضا جســد الفتاة لم يكــن صالحا لمهنة الأم، أما أبوها فلا يقوم بأي عمل ســوى الســفر من بلدة لأخرى، الأخوان يقومان بكل شيء لكن رزقهما أغلبه من السرقة والنصب، يندســان في الزحام وبخفة يدٍ متمرسةٍ تكون حافظات النقود معهمــا، كانا يسـتعينان بصابرين وهي صغيرة تســاعدهم فــي اقتفاء أثر رجل ما، تمتلئ محفظته بالنقود، يتحينان الفرصة، أثناء وقوفه في حلقة الإنشاد تمتد اليدُ ولا ترجع خالية أبدا.

فــي أثنــاء وقوفه في حلقة الإنشــاد وهو يَهِمُّ بالانصراف لمح ســالمُ صابريــن وهي تمرق بين الخيام، خف في نشــاط غيــر مألوفٍ رغم ثقل همه وشــروده مــع كلمات المنشــد، تلاقــت نظراتهما بقصــد، يعرفها؛

صابريـن الغجريـة ابنـة الغازية جواهـر، ليس وحـده الـذي يعرفها من مرتـادي المولـد، كل الزائرين يعرفونها، شـهرة أهلها بارتيـاد الموالد، عُرفـت أمهـا بالرقـص فـي الموالـد والأفـراح قديمـا، جسـد صابرين الممتلئ ذلك الذي ورثته عن أبيها فيما ورثت سمرة وجه أمها ووسامة قسـماتها مع شيء من الوقاحة يسكن في نظرتها، انطلق مُحازيا لها تارة ومتأخرا عنها تارة أخرى، في هذا الوقت كان قلبه قد خمد، نامت نوافذ ذاكرته، استراح قليلا من هياج أفكاره وتداعيها في مخيلته، قاتلته اليوم حشـود من صور الماضي، تجمعت، تكاثفت، هاجمت بقوة وضراوة، لم يسـتطع منها فكاكا، المنشـد تنسـاب كلماته وهو مغمض العينين، آه لـو يدمـع قد يسـتريح، يزفر زفرة قويـة تُخرج لهيب أحشـائه، لو يبصق على الفـراغ، بقبضته يضرب الهواء، يركل الجدار الذي يُطوِّق المقابر، به طاقة في حاجة للخروج من أسـر جسـده، أراد أن يُوقف سـرعة تتابع الصـور وما إن يغمض عينيه حتى تحضر صورة أمه، أبيه، الراحلين منذ زمـن؛ جده، جدتـه صور لموتى، أصدقـاء قدامى انقطعـت صلته بهم، مومسات، أشخاص جمعته الصدفة بهم أحبهم ثم فرقتهم الأيام، عيون شـامتة، ضحكات سـاخرة، وجـوه كالحـة، كان يطارد صـورا محاولا إبْعادهـا عن محيط الظـلام الذي تراءى له وقت إغماضـه عينيه، أحسَّ باستيقاظ وحوش بداخله، جرى الدم في عروقه وهو يتبعها، زاد نشاطه متجاوزا الزحام، ما إن تسمح فرصة حتى يحث خطاه، يتقدمها، يرمقها بنظرة شهوانية.

كانت صابرين عليمة بتلك النظرات، تعرف ما يريده صاحبها، فجأة خطر في باله أن يحرك يده نحوها، لكنه تراجع، لابد من صبر، مثل هذه تحتـاج إلى الترويـض؛ لتكلفها الدلال وإظهارها العفـة في أول الأمر، تقاربت الخطوات، تماسَّـتْ الأيدى في غفلة عن المارة، حدجته بنظرة من يرغب ويرهب في الوقت نفسـه، حـاول أن يكلمها، لكن جماعات مـن الناس كانت مـا تلبس أن تفرقهم ثم تجمعهم علـى حين غرة، كان الزحام كأمواج البحر يحركهم، يدفعهم إلى الأمام، ثم يردهم متقهقرين للخلف، يبعدهم، يقربهم، كثيرا ما تماسَّا لكن الكلمات هربت من فمه.

جرَّتهـم أقدامهم إلى الخيام مرة أخرى، خيمة خلفية، متوارية هناك فـي الظلام، سـارعت خطواتها، نظرت خلفها، دعتـه عيناها للمواصلة والسعي خلفها، أحس أن عينيها ترسل خيوطا بينهما تجره خلفها، كان مخدرا، مفتوح العينين ولا يرى سواها، حتى الخيوط الموصولة بينهما كانت بلون الدم الجاري في عروقهما، دخلت الخيمة، تبعها فاحتوتهما ظلمتها المجروحة بنُتف الضوء المتسللة من ثقوب رفيعة على جوانبها، أحـسَّ كأن بئرا مظلمة يضمه قاعها، غادرته همومه، ترجلت عن منكبيه أحزانـه، عالـم مغاير ولجه، انفلـت صوتها مطالبة إيَّاه بالثمن، أسـلمها النقود فأسلمته نفسها.

كان التدوين يسـير وفقـا للهمهمات، يعلـو بارتفاعها، ينخفض مع انخفاضهـا، لم تجر الأقلام فتملأ صفحـاتٍ كثيرة، تلك لحظات حَرِيٌّ

بها أن تُطوى وأن تضيع في بياض النسيان، لكن ما من شيء إلا ومآله إلى الدفتر مدونا......

وهتف هاتفٌ محمد سالم، محمد سالم.

- لـمَ وقَّعت هذه الصفحة باسمك؟ امحها إن استطعت، جز على أسنانه، قال كلمتين: الخطيئة أنثى.

خرج من خيمة الخطأ يقلب عينيه في وجوه من لقيهم؛ ليرى أثر خروجه من مكان كهذا، لم يعبأ به أحدا، وهو غريب، وهؤلاء الغجر غرباء، أخذ يسير بلا هدى أو قصد، وجد نفسه في مكان قريب من بيت نعمة؛ ربيبة العفاريت، رأي شبحا على سطح المنزل الواطئ يجمع ملابسا معلقة على حبل غسيل، يدان صغيرتان تنقبضان وتنبسطان في همة ونشاط، تُلقي ما تجمعه في وعاء بلاستكيّ، استجمع حدة بصره بتضييق عينيه، دقق أكثر، ترى من تكون هذه الواقفة على سطح المنزل تساءل؟، هذه ليست سوى نُهي، الجسم من بعيد لا يخص نعمة؛ من خفة الحركة البادية ذهابا ومجيئا تأكد أنها هي، نعم هي، تأتي كي تساعد أختها في أعمال المنزل، تَقطَّر الأسى على قلبه لمرآها، سَهمٌ انغرس بين ضلوعه، بين إغماضة سريعة، وجريان بصره بينها وبين البيوت المواجهة للبيت غادرت السطح فانمحي شبحها، تسللت من أعماقه كحبات ماء تقاطرت من بين أصابعه، لم تحس بوجوده ولو أحسَّت لم يعد يعنيها أمره، والحياة أمامها متسعة باتساع خياله الذي لا يكف عن الجموح، بعد تواريها، تذكر لحظات الخطيئة فصفَّق قلبه من الندم،

اجترَّ لحظات من المرارة تعكرت فيها روحه، مدّدَ جسده على الطوار، وتلقت أنفه روائح بقايا طعام عفن وبول تنشع به الحوائط من حوله.

غفا قليلا ثم انتبه فجأة على صوت أقدام تصير ببطء، لم يفتح عينيه رغم إحساسه بالحركة من حوله كان يودُّ أن يغوص في بحار النوم، يحاول أن ينسى ما خلَّفه نبش ذكرياته منذ قَدِم القرية، لم تمر إلا ساعات قليلة، شَعر كأنها دهور، خلَّفتْ أسئلة كثيرة وحيرة أراد أن يدفنها في منامه، اشتمَّ رائحة ثقيلة تَهُب عليه، وصوت قدمين تزحفان نحوه، اقتحمت أنفه أنفاس كريهة، دافئة، فحيحٌ يخرج من فم آدمي، شعر باختناقٍ كأن الهواء من حوله انعدم، قطرات ماء باردة لزجة سقطت على صدره، فتح عينيه بصعوبة، اندهش لرؤية ذلك المجذوب بلحيته القذرة، وشعره الملبد، أراد أن يدفعه بكلتا يديه، وقتها شعر أنه على وشك التقيؤ، ألجمته رائحة فمه وهو يتمتم بكلمات متكسرة، حاول أن يصرخ، محيط بصره تحول لغلاف أسود خَلقه جسوم هذا الرجل عليه، همس الرجل في صوت يشبه الصدى:

كل النساء قذرات «الخطيئة أنثى»

أخذ يفحُّ كثعبان جائع وعيناه تنزف وسخا، بادره سالم بلكزة في صدره.

اذهب يا لعين.

- القذارة تسري في دم كل امرأة.

أراد أن يصفعـه، بسـط يـده، طوحهـا تجاهه، لكنها طاشـت، صفع الفـراغ فكاد يسـقط من فـوق الطوار، فرَّ الرجل في لمـح البصر، ثوان معـدودات وكان يعـدو بسـرعة، كانـت الرائحـة النتنـة تزكم أنفـه، قام ليلتقط أنفاسه، ليملأ رئتيه من الهواء النظيف، لم تعِ أذناه الكلمات، لم يفكر فيها، فقط كان يريد أن يمحو الاختناق الذي يقبض على أنفاسـه، زفـر زفرة خرجت من أعماق أعماقه، ثقلت جفونه، رأي وهو بين النوم واليقظة رجـالٌ يدخلون بيت عبد العاطي، كان الظلام يخفيه فاسـتراح لذلك، فكر أن يكمل الليل نائما، لا يود دخول البيت مرة أخرى، عاودته كلمات المجذوب، انغمس في النوم كي ينسى ماحدث، في نومه زارته أحلام عارية ومجاذيب يتقافزون حوله، يتصايحون وكأنهم في زار،كان واقفا وسـطهم، وهم يصفقون سخرية منه، رأي صابرين الغجرية، نساء عرفهـن، نسـاء رآهن مرة واحـدة، خطفن قلبه ثم رحلن وخلفن شـجنا يتراقـص في حنايا القلب، رأي الشـماتة في عين عبـد العاطي، نظرات حداد كدن يخترقنه، رأي نُهي تُزف إلى عريسها، سيد يراقصهُ في عرس الزفـاف، غابـت ملامح سـيد فرآه كمـا يُرى شـخص من بعيـد لا تُميَّز ملامحه، رأي المجذوب مرة أخرى ينشـد والناس تتمايل رؤوسها من حوله، جوقة من المجاذيب يقفون خلفه، أحسَّ أن كل حاضري الزفاف مجاذيب في أسمال بالية، الشيخ عبد العال اتخذ ركنا، ظهر للحاضرين كجسـم نورانيّ، يداعب لحيته من حيـن لآخر، أراد الاقتراب منه، لكنه تذكـر صدوده عنه بعد الصلاة، في أجفانه ترقد أنوار يخرق بها حجاب

الغيب، لو يبوح له، يفضي له بأسراره، بمكنون يضنه عليه قدره، بهموم تثقل كاهلـه، تحني عوده، مـن بين الجمع تبدَّت له أمـه وبجوارها أبوه منذ أن ماتا لم ير طيفهما، لم يزره أحدهما في منام، على وجهيهما تنام ابتسـامة حالمة، ووقار مهيـب، يطأطئان رأسـيهما، كأنهما معزولان عن الكـون، يزعق، ينـادي، يصرخ، يسـتجدي طلتهما التي غابـت عنه منذ سنوات، التراب الذي جمعهما، رحيل الأب ثم تلته وعكة أرقدت الأم في فراشها، أشهرًا تنازع الموت، في ليلة انقطع صوتٌ كان يؤنسه، علم أن الوحـدة تنتظـره ولا منـاص له إلا فـي كنف صديقـه الوحيد، القلب الذي غمره بحنانه، الحِضن الذي ضمه بعد ذهاب الأبوين، الحياة التي تُسقط كل يوم ورقة من شجرة الأحبة فتكاد تفنيهم.

(12)

عَـــنَـــادٌ

الحركـة دائبة، العمـل متواصل والأمل مـا زال معقـودا، فهل ينبثق الفجر، وتتفتق أشعة الشمس الذهبية من بين سدف الليل الغامضة؟ هل تتجلى الحقيقة، تتساقط من رحم الأكاذيب والأمانى المضلِلة؟

الأيـام تجـرى آخذةً فـي طريقهـا الصبر، الحلـم يخبو تـارة ويعود ليومض من جديد، أينقضي الحلم بالاسـتحالة أم الانتظار يُفسح للأمل طريقا؟ بانحسـار مساحة المرجوِّ تُسحل الأعصاب، تنفجر خلايا الدم، ويسـكن الجسـدَ كائنُ الإحباط، يا لضيق صـدرِ المُنتظِر، الأجل ينهب من المعدود والمقدر، فمتى تنهار الأوهام وينجلي الحق؟ الخبيئة قريبة ، بعيدة، أكَّد الكثير بوجودها، مطمورة تحت التراب، لكنه الصبر النافد يلاحقه كوحش يطارد فريسـته، الجسد المرتعد من انقطاع الطريق قبل الوصول، المنامات التي لا تجلب إلا الوحوش الضارية التي ستفتك به إن خبـا حلمه وضاع في غيابات الانتظار، لكنَّ العقباتِ كثيرةٌ، لشـد ما تمنى أن يزيحها من أمامه؛ ليُغمض عينيه ثم يفتحهما فلا يرى أيَّ شـيء من ذلك أبدا.

ما بال أنفاس أمه تأبى الخروج، معلقة بجسدٍ هشٍ، يصارع الموت، فـلا يصرعهـا، تحتاج لمـن يرعاها ومن أيـن له باحتمال ذلـك والنقود تذهب هناك حيث الحلم المنتظر؟

الأم سـتموت اليـوم أو الغد، لكنه الأجل الموقـوت، لكم تمنى أن يطبـق عليها فيكتم أنفاسـها المتحشـرجة، إنها العقبة الكئـود بدعواتها المسـمومة أن يحبـط الله مسـعاه ويرد كيـده، هو العاصـي، العاق كما تقول، طالبٌ للثراء دون إراقة حبة عرق وعناء، تعرف خطيئته، وعقوقه واسـتحالة كل شـيء، لا تملك إلا الدعاء للقادم أن يأتي فيزيح كابوس أخيـه الواهـم، ويغدق عليـه بنقوده عـلَّ الأفواه التي لا تعرف شـبعا أن تُغلـق، لكنـه الدعـاء، لا تملك سـواه، جسـدها أصبح عظاما يكسـوها الجلـد المهتـرئ، لا تَطعم طعاما، فقـط الماء وبعض اللقيمـات تُعينها علـى احتمـال الـدواء، لا يُعلم مـا بها مـن أدواء، الطبيب لا تـزوره إلا لماما، عندما يشـتد الألم، تعلو صيحاتها، تئن من وطأته، تتراءى له أمه كهم ثقيل راسخ على صدره.

مـع هبوط الليل يتوافد العاملون حاملين فـي أيديهم أدوات الحَفر؛ فئـوس، مقاطـف مجدولـة، مجاريف ومـواد بناء، وطوب وأسـمنت، يتقاضـون ضعف أجرهـم العادي، يعلمون ما يبحـث عنه عبد العاطي، بخبـث بين يتعللون بأنهم يحضرون بالليل والعمل شـاق ومرهق لهم، يقبـل على مضض، ينفـق كثيرا، لو عثر على ما يرجوه سـيعوِّض كل ما أنفقـه، يتواصل الحفر يوما بعد يـوم، الحفرة التي زادت طولا وعرضا، ينبثـق المـاء، ينتشـر والفئوس فـي تواصـل والمقاطف تحمـل التراب

لأعلى، همس أحدهم في أذن عبد العاطي» المياه سوف تهدد أساس الجدران، والحفر قد يُوْدِي بها، تنهد، ثم رد عليه بغلظته المعهودة:

- أنت تتلقى ضعف أجرك فما عليك إلا الحفر.

كتم الرجل غيظه، تمنى في نفسه أن ينهار البيت على ساكنيه.

«كن عاقلا يا بني، لن نأخذ من أفعالك إلا الفضيحة والعار، ربما ينتهي الأمر بك خلف أسوار السجون، وتترك أولادك بلا أب، أنا ذاهبة إلى ربي، لن أبقى لك، وأخوك في غربته، من يرعى هؤلاء الصغار؟ سيجوعون ويتشردون بعدك».

أين الأذن التي تُصغى والقلب الذي يعى؟ الكلام يخرج من فم أمه ثقيلا على نفسه، مالها هي والنقود وأيامها في الحياة معدودة، لم يقتنع بالسفر مع أخيه، أمه يرتفع أنينها، وهو في صلفه، يمضي في طريقه سادرا، قال لأمه في حنان مفتعل:

قبل انقضاء أيام المولد يا أمي سيتم كل شيء وسيطوقنا العز، سترين كيف يعيش الأغنياء، تحملى بضعة أيام، لم يبقَ الكثير، لكنه الصبر، الذي تنفديه بأنينك المتواصل، دعواتك التي نتعثر بها، تجلدي يا أماه، سنغرق في بحر النعيم، لكثرة النقود لن تتمكني من عدّها، لنا في السابقين أسوة، تركوا البلد، ذهبوا إلى حيث يسكن الأغنياء هناك في المدن بعيدا عن قريتنا البائسة، حيث القصور، وحياة الرغد، سأجلب لك طبيبا خاصا، يباشر مرضك، أكبر مستشفي ستدخلينها إن أردتِ، لو رأيتِ الخبايا المطمورة، لن تعرفي المرض بعد ذلك.

وقف عبد العاطي في وسط الدار بعد انصراف العاملين، مهيبا بطوله الفارع وشعره الملبد، شاربه الكث، المبعثرة شعراتُه، كم حاول أن يجعله طويلا متدليا مثل أغلب رجال القرية، لكن محاولاته فشلت، بقيَ مشعثا غير مهذب، شعر ذقنه متفرق على صدغيه من غير نظام، منظره يبعث على الرثاء، جلبابه قذر، رائحة عرقه العفنة لا تفارقه، هالاتٌ سود أسفل عينيه، ينام مع بزوغ أول نور للنهار، يستيقظ فزعا بعد ساعة أو ساعتين، يساوم النوم، يترجاه، يوم الخميس يلبس جلبابا نظيفا، يمرر الموسي على شعرات ذقنه فيحلقها، أما يوم الجمعة فزيارته الوحيدة للمسجد، يذهب لمسجد الجبانة، يضع عطرًا رخيصا يثير المعدة فتكاد تقلب ما فيها.

برجاء القانط وعناد اليائس، يتجرع غصص الانتظار، ينهل من شراب الترقب، ضاق به المنزل بعد ليلة يأس جديدة، أخذ الفجر يلوِّن الجو بأطياف رمادية، وغلالة ضوء شحيحة تتراقص في فناء المنزل، تتسع خطواته ذهابا ومجيئا، أحس بالاختناق، متعة الهروب المؤقت من الحياة عَصيةٌ عليه، النوم ذلك الهارب الآبق منه، لشد ما يرجو الغوص فيه، حتى يسدل الليل ظلامه على القرية ليواصل العمل، لكنه الأرق والسهد والتفكير، زادت وطأة القنوط، وصل إلى ذروة الاحتمال، اختنق، جمدت عيناه، فلم تدفع دمعة واحدة، غرس قدمه المتشققة في التراب، نفضها، تناثر التراب على الحائط، بصق ناحية الحائط، صرخ صرخة مكتومة، لم يسمعها أحد، تحمل صبر الأيام والشهور المتعاقبة التي تنهب العمر، والرجاء الذي ينهب العمر والمال، شماتة الأعداء، مواساة الأصدقاء إن كان ثمة من صديقٍ له، الفقر، العوز، والحاجة

والديون، ثراءٌ منتظرٌ كسرابٍ يومض، يوشك أن يتجلى لكنها الحقيقة بوجهها الشائه، وأصوات المنادين بالابتعاد.

سعى إلى حجرة نومه حيث تخلد زوجته للنوم، أنفاسها في تتابع، مترددة في صدرها كأنها تشهق، متكومة تحت غطاء رقيق، جسدها ملفوف، مستديرة تضاريسه، يعلم مسالكه جيدا، كم جاس تلك الطرق، عبر الممرات، وصل واتصل، أَنْهكَ وأُنهِكَ، لكن الفترات الماضية كان الفتور يصرفه عنها، فلم يعبأ بذلك الجسد المنتظر، دفع الباب بعنف كي يوقظها، تعمد غلقه أيضا بعنف، بقوة المحبط نضا جلبابه عنه، ألقاه بعيدا على أريكة صغيرة، بدا شعر صدره الأسود كثيفا، مملوءًا بذرات التراب الناعمة، حالته لا تسمح إلا بالغوص في طيّات تلك التضاريس، إنها الملاذ الذي يهبه السلوان، ربما المناورة ومشقتها تجلب النوم، أيقظ رغبتها بجسده المتحفز، انجابت غلالة الضوء الشحيحة، حَلَّت الشمس بصفرتها الكئيبة، بدا الهواء خفيفا، تنادت العصافير مارقة خارج البيت، أطعمت صغارها، النوافذ مشرعة على أتم أهبة، وبسعير المغيظ امتطى جواده لاهثا، غافيا ثم أفاق على اندلاع الشرر في رأسه، انتفضت عروقه، القلب يسرع في دقه، هدأ الجسد، ترجل الفارس عن جواده، أحس بالخدر يسري في أوصاله، تمطى على الفراش، عينه مصوبة للسقف، أزالت أشعة الشمس غيوم الأرق، نام نوما عميقا زارته في منامه فراعين وأبناء ملوك وأمراء، وأميرات، رأي نفسه كأنه ساقٍ للفرعون، في الليل يطأ إحدى محظياته، وتراءت له ليالٍ كليالي ألف ليلة وليلة.

(13)

لَـــظـــــى

استيقظ سالم من حلمه على تواشيح فجر أول ليلة من ليالي السيد، انساب الصوت من ميكروفون المسجد هادرا، موقظا كل حواسه، فتنبه إلى أنه نام قسطا كافيا، نهض وقد انغرست نتوءات الطوار في ظهره، كان في حاجة ماسَّة إلى ما يرطب روحه، شيء يطهر الدنس الذي يلجمها، ليلة أمس كان يظن أن روحه الغائمة في ضباب كثيف ستجلوها ساعة يقضيها في خيمة الخطأ، كونٌ مستقل بذاته، كأنه خارج عن الحدود، حصيرةٌ ملونةٌ فُرشت على الأرضية الرملية، حشايا موزعة على الجانبين، وسائد قطنية وقلل فخارية في ركن من الخيمة، يده تمتد مرتعشة بلا هدف مصوبة في عبث إلى الجسد اللحيم، عاثت ولم تقع على موضع تقرُّ فيه كأنها ضالة عن بغيتها، تتوزع اللمسات، ضاغطة، متناغمة، مع الهمس والهمهمة تعطلت لغة الروح، ولم يبق إلا الجسد الناطق بالرغبة، صمت يغلف ذلك الكون، يَتلقى الأصوات خارجة كأنها قادمة من مجرة بعيدة، لها وقع خفي يسري عبر الفتحات الصغيرة للجدران القماشية للخيمة، انغمس في حُلكة رغبته ثم أضاءت نارُها

بغتـة فكأنمـا خُلق خَلقـا جديدًا وأُعيد إلـى طِينة الخلق فتكـوَّر وتحوَّر حتى صار إنسـانا جديـدا ونطقت جوارحه بالارتياح، هدأ توتر جسـده فانزاح عن الخيمة وصاحبتها.

يتذكـر تلـك اللحظات، يجتـرُّ خُلسـات الاهتياج، ينهض وجسـده يتلـوى محـاولا التخلـص مـن الآلام التـي خلفهـا نومه علـى الطوار، ينساب صوت المُوشحُ:

زِدْنِي بِفَرْطِ الحُبِّ فِيْكَ تَحَيُّرَا وَارْحَمْ حَشَـى لِلَظَى هَوَاكَ تَسَعَـرَّا

وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيْقَـةً فَاسْمَحْ وَلا تَجْعَلْ جَوَابِىَ لَنْ تَـرَى

زايلته أسباب البركة ونضِجَت ثمارُ الحزن في قلبه، أينع فصار دوحة تنعق فوق أغصانها الغربان حتى نسمات الفجر المباركة تحولت لرياح خانقـة أتتْ على ورقـات روحه المبللـة بندى الخطيئـة، صفيرٌ مرعب يدوِّى في أروقة نفسٍ خَربةٍ، خيال لا يُزار إلا ليزيد صدأ روحه المعذبة، تأمل في ترياق شـافٍ يجلوها، تسـبح عيناه مغمضة تارة، مفتوحة تارة، مصوبـة إلى الأفق، إلى اللاشـيء حيث تسـكن نـهي هنـاك بجوار أمها المريضة، قلبه معلقٌ بهذا البيت، سماءٌ مزدحمة بالنجوم تظلله، تسكب قطـرات من الحبِّ، أرض تطَؤها قدمها، تمرُّ فتسـكر الهواء من حولها، أي شـيء تفعـل الآن؟ هـل أيقظتها تواشـيح الفجـر كما أيقظتـه أو أنها تركتهـا للنعـاس؟ أي سـعادة تغزو قلبها لاقتـراب زفافهـا أم أنها تتمناه مثلما يتمناها؟

تُطبـب أمها، سـمعها يُرهف لآهـةٍ تُطلقها، لحاجةٍ تطلبها، فتُسـرع لتلبيتهـا، تخـرج لأُختها المنعزلة وسـرعان مـا تعود، تلتمـس راحتها،

عيونهـا علـى الفـراش الذي تتمـدد عليه منذ سـنوات لا تزايلهـا آهاتُ المرض رغم انتعاشها بين حين وآخر، تأمل باقتراب الشفاء، تعود وطأة المرض فتنقبض قسـمات وجهها، تسـتعر القلوب لهفة وشـفقة ويحل اليأس محل الرضا.

تيقَّـظَ عبد العاطي على نداء زوجته، أخبرته أن بعض الرجال جاءوا بعربـة ممتلئـة بالطوب تم نقلهـا من بيت له آخر في غـرب القرية حيث صَنَعَ هناك قمينة طوب.

يقوم العمـال بخلط الطين الرملي، أو الطَّفْـل بالماء، وكمية صغيرة مـن القـش (التبن)، أو العشـب أو مادة شـبيهة. ويجعـل القش الخليط متماسـكًا، متيحًـا للطـوب ثباتًـا أكبـر. وبعد ذلـك يُوضـع الخليط في قوالب خشـبية تُشـكِّله بشـكل الطوب. ويُزيـل العمـال القوالب عندما يجف الطوب، ثم يعرِّضونه لأشعة الشمس لمدة تتراوح بين عشرة أيام أوأسـبوعين، بدت قوالب الطـوب لامعة في ضوء الشـمس، اصطفَّت متجاورة في انتظام، كأنها قبور صغيرة أو سطور في كتاب، فراغ يفصل الطوب متسـاوٍ، كأن المسـافة قد قيسـت بين كل قالب طوب وآخر فلا تزيـد ولا تنقص، البناء الـذي يمثل القمينة منتصب، الطوب اللبن ما إن يجـف ويتماسـك ويصبح صلدا يُلقـى فورا في حمـأة القمينة، ثم يُلقى القطـران وترتفـعُ ألسـنة اللهب، زمزمـت القمينـة، أزَّت أزيـزا مخيفا، أخـذت تأكل الطوب وتلونـه باللون الأحمر بعدمـا كان رماديًا، هدأتْ النـار قليلا، وانبعث الدخـان الخانق عاليا، كسـحب متراكمة، تلبدت، تكاثـف الضبـاب الرمـادي الغامق، ملأ الأرجـاء، ثلاثة أيـام احتاجتها القمينـة كي تُنضـج الطوب، بعدها هـدأت النار، وانجلـى الضباب في

حيـن ظلت رائحة الطوب المحـروق عالقة في الجو، تخنق أغلب أهل القريـة، كان الجهـد المنتظر هو إفـراغ قوالب الطوب مـن القمينة دون أن تتهشـم، البنـاء العالي يحمل في جوفه القوالـب الحمراء، في انتظام تتـراص، أيُّ خطأ ينهار اصطفاف الطـوب، كان بعض الرجال يملكون من الخبرة والتمرس فقد أزالوا الجدار الأمامي، وتفكك الطوب، وكان هناك صبيـةٌ ينقلونه ويضعونه في صفوف فوق بعضه، يتطاير غبار بلون أحمـر أثنـاء نقل الطوب، بعـد ذلك تمَّ إفـراغ القمينـة فأصبحت كبيت خَرِبٍ خلا من سكانه.

تولَّـى ثلاثـة رجال حمْـل مقاطـف الطـوب ونقلها لداخـل البيت، غلامـان قاما بصف الطوب، وجَّهَهم عبـد العاطي وأكثر من التعليمات والأوامـر، سَـعل مـن تطاير الغبـار على وجهـه، بصق كثيـرا، تقاطرت البصقات منه، تنحَّى بعيدا، وصل إلى حظيرة البهائم، رمقهم في استياء، ترامت ناحيته رائحة السباخ فبصق على العجل الكبير، وتركه عائدا إلى الرجال، وجدَهم قد أتموا نقل الطوب اللازم؛ خمسـمائة قالب طوب، نظر أحدهم قائلًا:

هـل تنوي بناء الجزء الغربي مـن البيت، هذه القوالب تكفي لبناء طابق بأكمله.

صمـت عبد العاطـي كاتمًا غيظـه، نقل بصره بيـن الرجل والطوب المتراص، حدَّجه ببصره وزفر زفرة قائلًا:

لا ولكنى أزيد من مساحة الحظيرة.

ضحك الرجل الثانى، وهو ينفض جلبابه بسرعة.

يبدو أنك ستشتري مواشي جديدة أخرى، نحن في نهاية الموسم وأنت تحسن استغلال الفرص، فالبهائم رخيصة هذه الأيام.

تمنى لو يوسعهم بصقًا، يقتله فضولهم، وأنوفهم التي تأبى إلا أن تُحشر في كل شيء، أعاد بصره إليهم دون أن ينظر للسائل قائلًا:

ربما ربما.. هذه أجرتكم.

نقد أحدهم خمسين جنيها على أن يقتسمها هو وزملاؤه فيما بينهم، وأخرج عشرة جنيهات أعطاها للغلامين يقتسمانها، فهِم الرجال أنه يصرفهم بذوق مفتعل، كان لا يريد أن يحدث أحدا ،يعلم أنهم يتخابثون، الكل يعرف حقيقة الأمر، أراد أن يُوهم الناس بنقله كميات كبيرة من الطوب لكي يُوسع الحظيرة؛ حتى يَصرف أذهانهم وألسنتهم التي لا تكف عن الحديث في هذا الأمر وحدَّث نفسه بعدما أغلق الباب وراءهم.

«يالكم من فقراء بُلهاء تجمعون بين الفقر والمكر، سَأوسِعكم احتقارا، وسأترك لكم بلدكم الطيب!!، ترتعون في بؤسكم وجوعكم تنتظرون ليالي السيد كي يتم الواحد منكم زفافه، ارقصوا على نغمات القهر، وادعوا «السيد» واسألوه الستر عساه ينقذكم من جهلكم، ويحقق لكم ما تتمنونه!!، دخنوا النرجيلة، واكرعوا البوظة عسى السُكر أن يُنسيكم جحوركم التي تؤون إليها وتسمونها بيوتًا، ونساءكم اللاتي تسكنون إليهن.

(14)

أَنـــيـــنٌ

من قلب العتمة جَرَّ الفجرُ خيوطه البيضاء ملونا السماء بزرقة رائقة، تخرج نعمة متلفعة بسوادها يكاد ألا يظهر سوى عينيها، تصحب حسن ابن أخيها، يتوجهان إلى ضريح السيد، وقفت وكل هزائم أيامها الماضية تلوح أمام عينيها الدامعتين، كان الحزن قد سكن في داخلها، بنى عُشًا من بقايا ذكرياتها المؤلمة، صُفِّفَت وتراكمت عبر الأيام إلى أن صار العش بيتا مهجورا عدا وساوس تعلق بجدرانه، خيوط من ليالٍ سود قضتها في مواجهة ذلك المسخ الذي يتبدل كل يوم صابغا حياتها بقتامة خانقة، لكم تمنت الموت وهي تنازع وحدتها وفي لحظات نزوعها إلى الخلاص لم يبق لها إلا «السيد» وضريحه، هنا تُسكِب الهمومُ وتُلبى لكل داعٍ دعوته.

أمام مقصورة الضريح مالت برأسها منحنية، كأنها تُفرغ حملا يثقل رأسها، أغمضت عينيها للحظة ثم فتحتهما بقدر قليل يسمح برؤية المقصورة، مدت يدها تنفض الغبار الذي تراكم حتى غطى الكسوة ذات اللون الأحمر القاني، أزالت عنها طرحتها السوداء، مررتها على

المقصورة، مسحت التراب العالق، كوَّرت الطرحة ثم دست أنفها، استنشقت التراب فسعلت، وطفر الدمع رغما عنها، راحت تتمتم بأدعيتها التي تحفظها عن ظهر قلب، رمقها حسن، بدت في عينيه حيرة ممزوجة بإشفاق، عمته لا تضحك معه، لا تلاعبه مثلما تفعل عمته الصغرى، أيُّ مرض هذا الذي أُبتليت به، قالوا له إنَّ عمتك مريضة لازمها، ليس لديها أعراض المرض الذي تعانيه جدته، مرضها في صمتها وبقائها في البيت بمفردها.

الروح الطاهرة للسيد تحوم حول المكان، تُظلل روَّاده بمدد من السماء، ظلّت على انكسارها وذلها خاضعة، كانت تُحِسُّ أن «السيد» ينظرها، يراها، إذ تُلِحُّ في الدعاء، اعتادت أن تزور الضريح كل يوم من أيام المولد، ربما تتعدد الزيارات في اليوم الواحد، تلتمس الأوقات التي يقلّ فيها المريدون حتى لا يفسد تدافع الناس خلوتها وخشوعها، كانت ترقب فراغ المكان وخلوه ثم تتوجه جارَّة أذيال جلابيبها التي تكوِّمها فوق جسدها النحيل، تشق الشمس عباب الجو فتثقل أشعتها الصفراء الحامية على الرؤوس، بُدِّدَتْ نسائم الفجر، وحلَّت خيوطها اللاسعة، ركد الهواء تحت وطأتها، جذب حسن ثوب عمته،

«الشمس شديدة، هيا بنا يا عمة، يكفي ما قضيناه سوف نأتي بعد صلاة العصر»

لم تجبْ، أخذ يسحب طرف ثوبها، سحبت نفسها خارج المقصورة، سالم من بعيد يخالسها النظر، يحدّث نفسه:

- لماذا لا تنطق، لم تَبن ملامح وجهها، كانت مسدلة وشاحا أسودَ شفافا على وجهها ورأسها.

«عمتي عمتي عم سالم يجلس هنا أترينه؟»

قالها حسن لعمته، لم تجب المرأة عليه، كانت متلبسة بالحالة التي قد غشيتها في حضرة» السيد» أحست أن شيئا ذا بال سيغزو حياتها ويغيرها، ربما تنتهي حياتها، لكن الماضي لن يعود.

انتبهت عينا سالم عندما رآهما ينصرفان، ها هو حسن، أراد أن يحدِّثهُ، يريد أن يزور أم سيد، يطمئن عليها، لكن وجه عبد العاطي يَنمُّ على عدم قبوله زائرا، فهل ينتظر حتى قدوم سيد؟

تُرى ما الذي يشغل أباه هذه الأيام؟ وما حقيقة الرجال الذين جاءوا متسللين ليلة أمس؟ أسئلة كثيرة دارت في عقله وهما يمران مبتعدين نحو الشارع الضيق المُفضي لبيتها.

أحضرتْ الدواء لأمها، تناولته الأم متمتمة لها بالدعاء، تجلس على الفراش تنظر للأم، يقلقها أنينها الدائم، تعلم مرارة الأم بعد تشتت أبنائها بعيدا عنها بعد وفاة الأب إثر أزمة قلبية مفاجئة، حاولت أن تبقيهم حولها، سافر سيد للسعودية، وعبد العاطي تركهم ساعيا وراء الوهم وإن كان مقيما بينهم، وصارت نعمة ربيبة للجن، الذين ألجؤوها للاعتزال، تفتح نُهي صوان ملابسها تنظر إلى ملابسها التي اشترتها استعدادا لزفافها، تأملتها طويلا، قلبتها، أعادت تصفيفها، دارت في ذهنها أحلام الزفاف، الفرحة تحاول أن تنام على قسمات وجهها، لا تُحِس بأي شيء يدل على أن في البيت بنتا سوف تُزف قريبا، أرادت أن تطرد تلك الخيالات التي تفسد عليها فرحتها المحدودة.

كان عريسها قد جاء إلى منزلهم وتقدم لخطبتها، ووافق عبد العاطي فورا، أخبرها بذلك، قال لها إنَّ لديه أراضٍ زراعية، بيتًا كبيرًا في شـرق القرية، ستعيش سـيدةً لهذا البيـت الكبير، لا توجد أم لـه ولا أب، فقد توفيا منذ سنوات فالبيت خالٍ ينتظرها، لم يسألها عن رأيها، ولم تستطع أن تبدي اعتراضا، فقط قالت» ننتظر عودة سيد»

ملامحها محايدة لا تدري أيكون زوجا مناسبا أم لا؟

تركـت نفسـها للقدر يدبر ما يشـاء، طفـا الصمت علـى الحجرة مع انتظام أنفاس أمها وهدوئها مخلدة إلى النوم.

(15)

ذكْــــــرٌ

امتدّ السـرادقُ بعُرض الشـارع فمنع مرور السيارات، نصبت عروق الخشب بعد دفن جزء في أسفلها كي تظل راسخة في الأرض، أحيطت من جميـع الجوانب بقماشٍ قويٍ منقوش بألوان حمراء وزرقاء، تدلَّت مصابيـح مختلفة الألوان في حبالٍ من سـلك كهربائـي، مصابيح كبيرة بيضاء وملونة بطول السـرادق، وهناك في المقدمة أُقيمت منصة مرتفعة يُصعد لها بما يشـبه الدَرَج الصغير، ثُبتت مكبرات الصوت، سـماعات ضخمة، إضاءات مسـلطة على المنصة، مقاعد خشـبية في الساحة التي أحاطها السرادق، استغل مجموعة من الصبية انشغال العمال في تشغيل المصابيح وتثبيت عروق الخشب، صعدوا إلى المنصة، قلَّد واحد منهم الشـيخ ياسـين، تصايح رفاقه من حوله، كان الطفل يدندن بكلمات غير مفهومه، يصعب على الأطفال حفظ الشعر الصوفي التي ينشدهُ الشيخ، لكـن من كثرة سـماعها تَعْلَقُ بعـض الأبيات في الذهـن فتُحفظ، صاح صبيٌ، كان أكبرهم سنا، وأكثرهم ذكاء:

- اصمتوا، اسمعوني وهتف:

ومِن عَجَبٍ أَنّي أَحِـــنُّ إِلَيْهِمُ وَأَسْأَلُ شَـــوْقاً عَنْهُمُ وَهُمْ مَعِي

كان هذا هو البيت الوحيد الذي حفظه عن الشيخ كاملا، نطقه وسط تهليل رفاقه وإعجابهم به وبإلقائه.

أهل القرية رجال ونساء يحرص معظمهم على حضور حفلة الشيخ ياسين، الكثير منهم يحفظ أبياتا من الشعر لابن الفارض وابن عربى والمتنبي دون أن يفهمها، فقط هو الجرس الموسيقيُّ الذي يخلب الألباب، فضلا عن طريقة الشيخ نفسه التي تأخذ بألباب سامعيه.

أهم ما يقدم للحاضرين في هذه الحفلة الشاي والنراجيل، المصطفون في المقاعد الأمامية يكونون من وجهاء القرية، لا تفارق أفواههم مباسم النرجيلة، مع تصاعد الدخان وأنغام الموسيقى، يَرتقى صوت الشيخ تنطلق الآهات من الحناجر مدوية، يصدحُ الشيخ بأندى ما في صوته من جمال ويواصل إنشاده حتى خيوط الفجر.

من بين العيون التي أطلت من ظلام سطوح المنازل المطلة على السرادق، لمح وجها طالما غزا خياله، وجهٌ يسكن مقلتيه بعد إغماضة الجفون، شعر بالفرحة تنسكب من عينيها التي تمنى لو يحتويهما بنظراته الخجلى» أتفرحين يا نُهي، يقفز قلبك جزلا وأنا أُمزق قطعا وأنت بعيدة عني»

كان نظره مثبتا تجاهها، يرى شبحها، تبرق عيناها عاكسة صخب المصابيح التي تومض بألوان مختلفة، في غيمة الرؤية تهادت الموسيقى معلنة بدء الإنشاد.

إنْ كـان مَـنزِلَتي في الحبّ عندكُـمُ مـا قَـدْ رَأَيْـتُ فَقَدْ ضَيّعْتُ أيّامِــي

أُمْـنِيّة ظـفِـرَتْ روحـي بها زَمَـــنًا ... والـيومَ أحـسَبُها أَضْـغَاثَ أَحْـلامِ

وإنْ يـكُنْ فَرْطُ وَجْدِي فِي مَحَبّتِكُمُ ... إثْـمَاً فَـقَدْ كَثرَتْ فِي الحُبّ آثَامِـي

وَلَو عَـلِمْتُ بـأَنّ الـحُبَّ آخِـــرُهُ ... هَـذَا الـحِمَامُ لَـمَا خَـالَفْتُ لُوّامِّـي

أَودَعْـتُ قَلْبِي إلى مَنْ لَيْسَ يَحْفَظُـهُ ... أَبْـصَرْتُ خلْفِي وَمَا طَالَعْتُ قُدَّامِي

لَـقَدْ رَمَـانِي بِـسَهْمِ مِـنْ لَواحِظِـــهِ ... أَصْمَى فُؤَادِي فَوَا شَوْقِي إِلَى الرَّامِي

«فوا شوقى إلى الرامى» أعادها الشيخ ياسين أكثر من مرة، تعالت الأصوات ترددها، أما سالم فكان ينظر إلى الأفق، إلى اللاشيء، إلى حيث نُهي، إلى حيث كانت واختفت.

أمنية ظفرت روحى بها زمنا

ردَّدها عدة مرات، همس كأنه يخاطب شخصا ماثلا أمامه

واليوم أحسبها أضغاث أحلامِ

في تلك اللحظة تأكد له أنه لن يراها مرة أخرى، ستغيب في بيت زوج لا يملك معشار ما يملكه لها من حب.

لا يدرى لماذا كان يكره عبد العاطي، ألملامحه التي لا ترق أبدا أم للحيته سيئة النمو؟

صوته الأجش في فجر، ، يلقاه بابتسامة ساخرة تخفي من وراءها المكر، الامتعاض الذي لم يستطع أن يخفيه في لقائه به أمس.

عبد العاطي يحمل نكد هذه العائلة التي ضربت جذورها في الحزن سنوات وسنوات.

قفـزت صورة المشـهد الذي رآه ظهر اليوم كانـت صابرين تمر أمام الضريـح فـي الوقت الـذي كان هناك صبيـان يتعاركان، ألقـى أحدهما حجرًا أخطأ رفيقه ليسـتقر في رأسـها أثناء مرورها بجوارهما، صرختْ صرخـة جمعـت كل المتجمهريـن حول الضريح، خـرج خلق كثير من المسـجد المجاور للضريح، توجَّهوا صـوب الصوت، وجدوا دماء تنزُّ بغـزارة على الرمال واسـتحال وجههـا بلون الدم، تبـادل الناس الخبر، وسـرى حتى وصل لسـالم، انتزعه الصياح من سـكونه، التفتَ نحوها، رآهـا وهي تلفظ أنفاسـها الأخيـرة كدجاجة مذبوحة تقـاوم بلا جدوى نزف الدماء.

ماتـت صابرين ماتـت صابرين، التمعت عينـاه بالدموع وأطلتْ بغزارة تبلل صفحة خده.

صابرين،كانـت منـذ لحظـات بيـن يديه تتلـوى، تصير الآن جسـدا هامدا في انتظار حِضن التراب كعاشق أتعبه طول البعد والاشتياق، من «حضنـي إلى حضنه»، ماتـت بخطيئتها، أما هو فيحيا في قذارته وأدران نفسـه، روحـه غارقة فـي وحل لا تسـتطيع الانفـكاك منه، شَـهِقَ كأنما يصارع موتا قادما.

كان البـكاء يخنـق صوتـه فيخـرج مسـلوخا، متقطعـا، بكفه ضرب الرمال الممزوجة بالدماء، تشـاغل الناس في لف الجسـد المسجى في قماش أبيض حال لونه إلى حمرة الدماء التي لا تتوقف عن النزف.

بعـد انتهـاء حفلة الشـيخ ياسـين، اصطحبه عبـد العاطـي ليبيت في حجرة سيد، سالم بالكاد كان يتكلم، يرد على أسئلة عبد العاطي، يُوجز فـي كلامـه، أعاد قصّ حكايـة صابرين الغجريـة وطريقة موتهـا، ودَّ لو

يدفع كفه صوب فمه فيغلقه، لا يريد أن يسـمع أحداث القصة وقد رآها في الصباح فضلا عن طريقة عبد العاطي المتهكمة، اسـتمع سـالم إلى بقيـة القصة، كان قد فرّ إلى جوار الضريح، لـم يتحمل المشـهد، تركهم يحملونها ملفوفة بقطعة القماش في انتظار قدوم أهلها ليأخذوها

صابريـن عرفـت رجال بعدد كتب سـيد التي يغطيهـا التراب منذ سـفره، والله لا أدرى ما فائدة كل هذا الورق وأيُّ شـيء يحويه؟ أفي هـذا الكلام المكتوب مفتاح للغز الحيـاة، وجلب الأموال؟ لوكان ذلك صحيحا ما سـافر سـيد وتغرب من أجـل النقود التي يمن بها علينا.

ولما كان يعرف سـالم أن الكلام معـه لا يجدى فهو جلف لا تنفعه نصيحة ولا يقوِّم إعوجاج تفكيره قولٌ... تمتم بينه وبين نفسه.

«تغرَّب ليسد الأفواه التي لا تغلق والبطون التي لا تعرف الشبع».

تجمـع أهل صابرين يبكون ويولولـون، لطمتْ الأمُ وجهها وحثتْ التراب فوق رأسها، ناحتْ حتى بُحَّ صوتها، ذهب أبوها وأخوها ليعدوا مراسـم الدفن، ولـم يكن لهؤلاء الغجر بلد أو أرض ينتمون إليها فليس لهم مقابر يقبرون فيها موتاهم، تقرر دفنها في مقابر خاصة لدفن الغرباء ومـن لـم يُعرف لهم بلد أو عابرى السـبيل الذين يموتـون أثناء مرورهم بالقريـة ويصعب نقلهم إلى بلادهم البعيدة، هذا إن عُرف من أيِّ البلاد جـاءوا، وهم في الأغلب من الباعـة المتجولين، أوممن يجوبون البلاد بحثـا عـن الـرزق أو التماسـا لبركـة أماكن بعينهـا أو يأتون في مواسـم كالموالد والاحتفالات بالأولياء، حدث كثيرا في ليالى مولد السـيد أن

مـات أحد الباعـة أو أحد الزائرين، ودُفنوا في تلـك المقابر المخصصة للغرباء.

لكن صابرين كانت أول من يُقتل في المولد، لم يُبلغ أحدٌ الشرطة، سـوف تفسد ليالى السيد لو داهمت الشرطة القرية، ستكثر التحقيقات، تُفتـش البيوت، يَرحل كثير من الناس خشـية الاشـتباه، الـكل يعلم أنها قُتلت قتلا خطأ، حجرٌ صغير جاء في موضع من رأسـها فأرداها، قدرها هكـذا، أيضا أبوهـا وأخوها الأكبر، لـم يحبا أن يتعرضا للشـرطة، لهم سـوابق، وظهورهما سـيفتح عليهمـا بابا يهربـان منه كثيـرا؛ لذلك آثرا الصمتَ وحَثَّا نشاطهما لإتمام مراسم الدفن.

بعد انتهاء مراسـم الغسـل والتكفين، شُـيِّعت الجنازة وسـط حشد هائل من أهل القرية حيث كان من عاداتهم ألا يتخلفوا عن جنازة متوفٍ سـواء أكان من أهل القرية أم من الغرباء؟ حسـن السمعة أم سيئها؟ كل ذلـك رغبـة في الاتعـاظ من رهبـة الموت وجلالـه، والتماسـا للثواب والأجر.

رأي سـالم الشـيخ عبـد العـال للمـرة الثانيـة متقدمـا للصـلاة على المتوفـاة، بعـد الانتهـاء من الصلاة نُقلـت الجثة إلى حيـث مثواها، بدأ دعاء الشيخ لها، تلا الشيخ قوله تعالى «كل نفس ذائقة الموت»

وجد سـالـم الفرصة سـانحة بعـد أن انفـض الجمع من حـول القبر وتفـرق النـاس إلـى مصالحهم للقاء الشـيخ، لكـم يحتاج إليه، يشـتاق إلـى لَثْـم كفه، به نزوعٌ إلـى بكاءٍ لا يكف إلا بين يديـه، لا يُهدهد روحه سواه، هل سيعرض عنه كما فعل بالأمس؟ أو يلقاه ضاما أضلعا أضناها الشوق وأرَّقها طول الضنى، دخل عليه خلوته في مسجد الجبانة، هكذا

يســمونه؛ لأنه ملاصقٌ للمقابر، وغالبا ما تقـام فيه صلوات الجنائز، في حجرة ملحقة بالمســجد وجد الشيخ ممسكا بمسبحته، وعيناه ناظرتان للأسفل.

صوتـه يعلـو وينخفـض في هـدوء، يجيء ويذهـب، كأنه قـادم من كل ناحيـة، لا يُعلـم من أي جهة يصدر، وإلـى أيِّ ناحية يتوجه أظلمت الحجـرة رغـم أن الوقت نهـاريٌّ تقريبا بين صلاتي الظهـر والعصر، أو يكـون قـد أُذِّن لصـلاة العصر وفـي انتظار إقامـة الصـلاة، الوقت عنده منعـدمٌ، لايسـتطيع التميز ولا يمكنه التحديـد، اختلطت الرؤى، ذابت الأشـياء، تماهت في عتمة الحجرة، الشـيء الوحيد المضيء هو الهالة التي تؤطر جلسته متربعًا، الصوت الذي يُنير قبل أن يُسمع، الضوء الذي له وقعٌ موسيقي ينساب متخللا كل جارحة من جوارحه، هل أصاب إذ جاء في وقت كهذا أو أنه هو الوقت المناسب؟

لا يعلم مدى ثورة الشيخ لو غضب أو أبْدى امتعاضا لزيارته أيرحل أم يلج الظلام؟

أيثبـت مكانه منتظرا تمام مناجاتـه أم يزحف صوب العمامة البيضاء فيلثمها؟

أفكار شتى تزاحمت في رأسه لا يعرف أيها يصلح فعله وأيها يجب تجنبه، إنها فرصة قد لا تعوض، متى يقطع دابر الحيرة والتردد؟

«اللهـم أخرجنا من حولنا إلى حولك، ومـن خوفنا إلى أمنك، ومن ذُلِّنا إلى عِزِّك،ومن ضعفنا إلى قوتك، ومن غربتنا إلى كنفك، ومن فقرنا إلى غناك، ومنا إليك»

لـن يجـد أمنا بعيدا عن تلك الحجرة ومن ذلك اللسـان الذي يلهج بالدعـاء، الاطمئنـان يحضـر هنا، تحـط حمامات السـلام على روحه، فيرى سحابات بيضاء في سماء خياله السابح في ملكوته.

ارتمى في حضن الشـيخ فشمله الصدر النحيل، الذراعان النحيلان يلفَّانه، أحس أن تحنان الكون يزحف صوب عروقه، ويسـرى نحو قلبه فيملأه حبا، تذكر كلمات الشيخ أثناء خطبته

«ثمرة الحب الفناء» رددها الشـيخ سـاعتها، حاول تذكر ما قاله في خطبته، كلمات قلائل هي التي علقت في ذهنه، كثرة الحوادث، تتابعها عليه، أشياء عالقة في خاطره، لا تزول ولا تُنسى، أشياء تزاحم أشياء.

لـم يجبه الشـيخ من فرط وجله، ناداه وتكرر النـداء ،وازداد الوجل «أتانـى صوت دقـات قلبه، ألجمتْ لسـانى، سـكتَ عن إجابـة ندائي، ولمـا طال انتظاري، اقتربتُ فارتعدَ، دنوتُ فكانت ضلوعى تَسـوخ في ضلوعه، وشخص البصرُ، وذاب الفؤادُ من هَولِ ما رَأي»

فـي الغرفـة يجلـس سـالم وحيدا وضـوء المصبـاح الجديـد يملأ أرجاءهـا، السـرير الصغير ملاصـق للجدار الخالي مـن أرفف الكتب، باقـي الجـدران تُلاصقهـا أرفف تحوى كتبـا علاها التـراب، منها قديمٌ مصفـرٌّ ومنها جديد لـم يُقرأ من قبل، أوراق متناثـرة هنا وهناك «أيكون الخلاص بين طيات هذه الأوراق؟»

حملقَ في السقف واسترشد بما أتاحته له الرؤية بعد اعتياده الظلام إذ كان قـد أطفـأ المصبـاح، تـرك الطعام علـى منضدة صغيـرة، يدُ نُهي امتدت هنا، مرَّت فأهدت للأشـياء مسَّـها، طاف خيالـه فتذكر ما كانت

تناديه به» أستاذ محمد «كما علمها أخوها سيد، الجميع ينادونه باسم والده «سالم» هكذا أُشتهر إلا هي فتذكر اسمه مسبوقا بكلمة أستاذ، اسمه الذي لم يسمعه منذ رحيل والديه، راوده سؤال مُلحٌ ما الذي يشغل بال عبد العاطي ويربك خاطره، شيء ما يحدث؟

لم تسمح حدود العلاقة بينهما بأن يسأله، أخفي عبد العاطي إطراقاته الكثيرة في تمايل رأسه وقت إنشاد الشيخ ياسين.

كانت معدته في حاجة إلى أن تُطفئ جوعها، لكن نفسه لم تستطع أن تقبل طعامًا، الأفكار تدور في رأسه بلا توقف ولا هوادة، متى يحل عليه الملل فيُشل رأسه عن التفكير، غفا ساعة أو يزيد، استيقظ بعدها وأذناه تتلقف صيحات الديكة آتية من البيوت المجاورة، يصيح ديك فيجاوبه آخر، حتى تداخلت الأصوات ، هل هي سعيدة أو أنها ترتع في حزن مثله؟

ليته يملك حنجرة ديك ليصدح بالصوت آنًا، شاكيا، متوجعا، به زفراتٌ في حاجة للانطلاق. ما أسعد الحيوانات وأتعس الإنسان في رحلته نحو العدم.

«هل من خلاص يا مولاي؟»

وجدَ وجههُ مندسا في صدر الشيخ، انحبست أنفاسه، فكأنما يتنفس من خلال عظام صدره، اشتمَّ عبقا لم يشم مثله من قبل، ودَّ لو تفيض عيناه بالدموع، لم يُصدِّق أنه بين ذراعي الشيخ وفي حضنه، التحم بصدره، يريد أن يبوح دون أن ينطق، يخشى افتضاح أمره، لكن شعورا بالسكينة غشاه وهو بين أحضانه، أكسبه راحةً كأنما أفرغ كل

مـا فـي صدره من هموم، ما إن تراخت أيدى الشـيخ حتى انتزع جسـده الضئيل من بينهما فمال على يده فلثمها، تهدَّج صوت الشيخ:

خلاصك في خلود آثارك.

لا أود الخلود، بُغيتي الخلاص.

ليته ما أجابه، ليت لسانه جف فلم يتمكن من النطق، أَغْضى الشيخ، أطـرق ناظرا إلى مسـبحته، أخذ يتمتم بكلمات لـم يفهمها سـالم، ظنها إشارة بانصراف، آه لو بقي بين يديه كيف يختصر الحديث هكذا، تمنى أن يصل ذلك الحديث الذي انقطع فجأة، حاول فخانته شفتاه، أغمض عينيه محاولا استكناه ما لفظه من كلمات، همس سالم بينه وبين نفسه

«ليس لي من آثار إلا الخطايا»

نطق الشيخ وكأنه قرأ ما أخفاه لسانه من كلام.

«وما صَبْرُكَ إلا أثرٌ وعِبرٌ»

هفت نفسـه إلى الطعام فأزال قطعة القماش التي تغطي الأطباق، لم يفكر أن يشعل المصباح، أخذ في قضم اللقم في الظلام، لم يحسّ شهية للطعام غير أنه يريد أن يملأ معدته الفارغة، يتذكر عندما كان يجتمع هو وسـيد ويـأكلان في هذه الحجـرة، كانت أمه في شـبابها وصحتها تأتى مصطحبة نُهي، حاملة صينية بها أطباق الطعام والأرغفة، أين ذهب هذا الزمان؟، وأين لذة الطعام التي ذهبت مع من ذهبوا؟

مـا أتعـس التفكير في الماضي، إنَّ الزمان ألعوبـة غير حقيقية مُنافية للعقل، لا تجلب إلا الخيال الذي يُقطِّر العذاب على النفس، قطرة قطرة

انسـحبتْ السـعادة من حنايا روحـه، ولـم تبق إلا الذكريـات الموجعة، قاتل الله الذكرى، ما الذي يفيده التحسر على الماضي؟

واهمٌ مَن يظن العزاء في اجترار الذكريات، لكل يومٍ نشوةٌ ولكل يوم حـزن خـاص والأيام تمحو بعضها بعضا، لا تبقـى حزنا ولا تذر فرحا، كلٌ إلـى زوال، غدا تسـخر مـن ليالٍ قضيتها مسـتدعيا شـريط الماضي متحسـرا، الزمن يمحـو ويثبت، وحـده الهم الذي يخلقُ من اللاشـيء أشياء، وما أكثر الأوهام التي تَعثر فيها طيلة سنوات غياب سيد، سيعود ثـم يغادر، ويبقى في أوهامـه وذكرياته، عِش لحظتـك لا تغادرها حتى تغادرك، هل ثمة من غد جديد يحمل ثمار الآمال؟!

«خذنـي يـا نومُ بيـن أحضانك كما أخذني شـيخي بيـن أحضانه، لا أودُّ الإفاقـةَ، ليتنـي أخلدُ إليـك، لا أغادرك، لا أنتبـه إلا وأنا بين ذراعي الموت»

ونُودي سالمٌ من علٍ، وتمت الكلماتُ فوجب أوان تجليها.

تَكَلَّمَ السَّيْد

لم يبقَ سواك شاهدٌ
تشهد الحقيقة لتبلغها،
احفظ ودوِّن، لم يبقَ الكثير
لكنَّ الموتَ الآن في نشاطه، فأيقظ جنانك
حولك تُنصب شباكه
حولك تبتلع الأرضُ الخاطئين
خطوة تفصلك عن الهلاك أو الخلود
هنا سيرك وسيرتك
هنا الموت والعدم
هنا الاطمئنان والفَرَق
لا تغادر اللحظة، أوقف نزيف الزمن،
سائل مَنْ الضحية والقاتل
تأمَّل غمامة الوقت
فالطريق إلى السراب مكنون

(16)

غــطــــاءٌ

أصـواتُ دق الطبـول آذتْ أذنيهـا المرهفتين لسـماع أي شـيء غير مألوف، لم تُحدِّد، ولم تعرف ما إذا كانت تلك طبول الرحيل أم القدوم أم طبـول مرور فِـرق الغجر بين الحين والآخر، لكـن علو صوت الدقِ كان يحمـل احتماليـن؛ البداية أو النهاية، تحديـد الوقت منعدم عندها، لا تُحـدده إلا من خلال إذاعة القرآن، علتْ الدقات فغطت على صوت القرآن المنبعث من الراديو، فلم تسـمع شـيئا، أصابها الخوف، أحسَّت أن اللحظـة التي ينقطع فيها إرسـال الإذاعة تحمـل حضور ذلك الجنيِّ العتـي الـذي لا يرحمهـا، فجأة وفي صخـبٍ أصمَّ آذانهـا، انقطع التيار الكهربائـي، وعمَّـت الحجرةُ كتـلٌ كثيفة من الظلام تراكـم عليها الهم، فانحبسـت أنفاسـها، وصارت لدقات قلبها صوتا يماثل دقات الطبول، انقدحـتْ شـرارةٌ في الجـو تلاها عدة شـرارات، التمعـتْ عيناها، كأنَّ وهجًـا قـد صُوِّب إلـى حدقتي عينيها وأحسـت بكائن ذي جلد خشـن يطول كلَّ موضعٍ في جسده، فانفجرت صارخة، لكنَّ صوتها لم يخرج من فمها، قاومتْ ذلك الكابوس ظانةً أنها غارقة في حلم تتمنى أن تُفيق

منـه، وبلا جـدوى كررت النـداءات، لكنَّ صوتا من حلقهـا لـم يخرج، تلبَّسـها ذلك الجسـد حتى عُصرت عظامها، فطقطقتْ من الألـم، نادت يا «سـيد» أيُّ سيد أخوها أم الوليُّ؟، لا تدري أيهما فكلاهما بعيد، ولن ينفعاها بشـيء، كل التوسـلات والزيارات والنذور لـم تُجدِ نفعا، وسيد لـم يعد ثمـة أمل في رجوعه أصبـح لديها اعتقاد أن ضريح «السـيد» لا يحمل في جوفه إلا وهمًا كبيرا عاشه الناس طوال سنين عديدة، جربت المـوت مـرات مرات ولـم تنفعها الشـكوى التي سـكبتها مـع دموعها أمـام الضريـح تأكد لها أن المـوت قد يُذاق لمرات عديـدة وأن الموت الحقيقي صار أمنيةً تعزُّ عليها ورجاءً لا يأتي.

تطاير الشررُ في فضاء الحجرة مُؤذنا برحيل الجني بعد أداء مهمته، فالتمعـتْ عيناهـا مـرة أخـرى وسـالت دموعها وهـي تُلملم جسـدها المندقَّ، سـرى في كيانها إحساسٌ بالانسحاق والهزيمة، وغياب البركة المزعومة.

«فـي ضريحـك لا تعبـأ بي سـاكنا آمنـا من لوثـات الحيـاة، ومهما يَختلـف النـاس في تلك الأيـام التي يُحتفـل بها أهي ذكـرى وفاتك أم ميـلادك؟، هي بُهـرجٌ لا ينفعك ولا ينفعنا، سـعادة يتوهمهـا من فقدها وعز عليه أن ينالها»

خبا نور الحياة في قلبها فلم يعد في وُسـعها الاحتمال، غياب الأخ ومـرض الأم وقسـوة أخيها الآخر وانعـدام الأُلفة بتواريهـا بين جدران العُزلـة لسـنواتٍ لا تـرى نـور الطريق إلا لحظـات كل عدة أشـهر، قوة أعانتهـا علـى قهر استسـلامها للمـوت، في حفـرة صنعتها بنفسـها كي تنام وتُهيل التراب على جسـدها المسـجى في صندوق خشـبي صنعته

من أخشـاب الأبواب القديمة التي كانت تُغلق على سـعادتها في أيامها الأول، متواريـةً للحظـات ثم منطلقة لدنيا البشـر، نامـت في الصندوق وأوصـدت غطاءه عليها، اسـتقرَّ الغطـاء فوقه فغطَّاها بالكامـل ولـم يَبْدُ منها شـيءٌ في حجرة في الطابـق الأول، لا يدخلها أحد ونامت منتظرة موتا تحقق لها بعد ساعات كأنه كان في انتظارها في ذلك الصندوق في تلك الحجرة المهجورة، واستسلمت لأنامله التي كانت أحن عليها من كثيريـن حولهـا، انطفأ نور الحياة في جسـد لم يهنأ بلحظة سـعادة طيلة السـنوات التي توحدت فيها مع ذلك الجني، فتلقاها الموت من حضن الجني إلى حضنه.

سار سالم في شوارع القرية بلا هدى يدفعه تزاحم المارة إلى حيث لا يـدرى أين يذهب، تأمل تلك الشـوارع التي كان يسـير فيها مع سـيد وهي مقفرة خابية أضواؤها في الأيام العادية قبل المولد، كان يأكل قلبه الحنيـن لتلك الأيـام، الآن امتلأت الشـوارع بزحام لا يسـمح بالمرور لكنها خلت من رفيق عمره.

رأي رجالا ونساءً يتعممون بعمامات خضراء يرفعون أعلاما ملونة مكتوب عليها آيات قرآنية وأسـماء لبعض أوليـاء الله الصالحين، تقدم هـذه الأعلام علم كبير مكتوب عليه الشـهادتان يليـه علم مكتوب عليه اسـم «السـيد» كاملا، وهناك أعلام للسـيد البدوى وللسيد عبد الرحيم القناوى، والمرسى أبو العباس، وأسماء لأولياء آخرين.

وبدأت نوبات ضرب الدفوف، وعلى تلك الأنغام كان المنشـدون يرددون أبياتا من شـعر «السـيد» وأبياتـا من قصيدة البـردة للبوصيري،

وأبياتا أخرى من الشعر الصوفي وفي مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم -

بدأتْ عربات الكارو تحمل أبناء القرية ليقوموا بأداء زفة المولد التي تنتهي عند الضريح حيث تضع هناك أحمالها ويتجمع كثير من الشحاذين ويتلقون الهبات والنذور التي تُنذر للسيد ويحصل عليها هؤلاء، ويردد المنشدون أبياتا وأورادا صوفية مدة ساعة ثم ينصرفون.

(17)

وَديـــعَـــةٌ

صــار البيت عالما مغايرا لما يتم في خارجـه، كأنه دنيا قائمة بذاتها، كونٌ له نواميســه الخاصة، الجَلَبةُ واصطخاب البشر وتوافدهم للمولد، لا يصل من ذلك إلا أصوات تترامى كلحن جنائزي.

عبد العاطي لا يخرج من بيته ليرى مشـاهد الليلة التي طالما حرص على حضورها منتشيا بالرقص طوال الليل في حلقات الذكر، وشراء ما يحبـه أبناؤه، لا يرجعه إلـى منزله إلا خيوط الفجر معلنـة انقضاء الليلة وانفضـاض الجمـع، انصـرف العاملـون مُتربـة وجوههم وملابسـهم، شعورهم متلبدة بالغبار، لم يستطع واحد منهم نفض الملل الذي أصابه مـن العمـل الليلي، يكابـدون من الصبـر والانتظام في المجـيء مقابل الأجـر المضاعف، والأمل في العثور على الخبايا فيمطرهم بفيض مما سيحل عليه من الثراء.

مضــت الليلة في الحفر كان الماء يعوقهم إذ يصلون إلى عُمق ينبثق المــاءُ متدفقًـا منه، يتحـول الرمل والتـراب إلى وحلٍ يَصعـبُ معه دفع الفـأس فـي الأرض، كانـوا يحملون أكـوام الطين ويضعونهـا في وعاء

بلاستيكي كبير، أُزيل غطاء أعلاه فصار مفتوحا، عُلِّق فيه حبلان، ثُبِّتا بقطعتي حديد صغيرتين، نفذت كل واحدة منها في جانب، يُملأ الوعاء ثم يُرفع لخارج الحفرة التي أصبحت كالبئر العميقة، يُلقى خارجه، نال الكد منهم، وصلوا لمرحلة يستحيل العثور بعدها على شيء، قرر عبد العاطي أن يُزيح التراب، أَمَرَهُمْ بردمِ الحفرة، للمرة الخامسة يَتناوب الرجال الحفر ثم لا يجدون إلا الماء، يتراءى لأحدهم ثعبانٌ يبتعد عنه فيقترب ثم يفزع، يجده قد تحوَّل إلى رمال تذوب في الماء، ليخرجَ ثعبان آخر، قلَّب عبد العاطي الأمر، حدَّث نفسه أنه لن يصل إلى رجائه بين يوم وليلة، وما جَناه سوى الحفر ثم الردم، الحفرة الواحدة تحتاج لحفرها لليلتين أو أكثر وفي الليلة الثالثة تتأكد لهم خيبةُ مسعاهم، يأمرهم بمواصلة الحفر ربما لليال ثلاث أو أربعٍ بعد الليلة الثانية يستحيل حفر أكثر من أربعة أمتار يتثاقل الطمى، ويصعب رفعه مثل التراب، يحتقن وجهه بالغضب إذ يرى الرجال وقد نال منهم التعب واليأس.

انجلت ظلمة ذلك الليل، خرجت أنفاسٌ صوب السماء، وديعة استردها صاحبها، ترامت إلى أذن الليل صرخات منبعثة من حجرة الأم، كانت صرخات نُهي، شاهدت أنفاس الأم تخمد، لحظة وعلتْ ابتسامة فوق وجهها، وأخرجت آخر شهقة لها في الحياة، خدش سكون الليل المطبق، الغرباء مستلقون على الأرصفة يغطون في النوم في حين كانت موسيقى الفناء تترامى في أرجاء الأرض مُشيعة روح طاهرة محملة على أجنحة الملائكة.

في نهاية يوم طويل شهد عزاء الأم، توافدَ خلقٌ كثيرون على السرادق يعزون عبد العاطي، وقف بجواره سالم طيلة اليوم، كان الواجب يقتضي ألا يتركه في ذلك الظرف؛ وفاءً لصديق عمره سيد، الذي لم يأتِ على بال أحد أنه من المفترض أن يحضر في هذه الليلة، لكن الجميع انشغلوا في العزاء، موت الأم رغم أنه كان متوقعا، لكن عند وقوع مصيبة كهذه تختل الموازين، تضيع الحسابات، يصبح الحزن هو الشغل الشاغل لأهل الميت، عبد العاطي كان يحس بمشاعر متناقضة فبرغم أن موت أمه حقق له راحة كان ينتظرها إذ تخلَّص من عقبة مرضها الذي لا شفاء له وكثرة شكواها، واعتراضها على كل ما يفعله، ومقارنتها بينه وبين سيد، وانتظار قدومه لكي يعوضها عن حنان الابن الذي حرمها – كما تظن- هو منه، كل ذلك خَلَّف في نفسه بعض الارتياح، إلا أن مراسم العزاء والحزن الذي يتوجب أن يظهره أمام الناس، كان يقف أمام تلهفه، واستعجاله استخراج المخبوء، ما إن اقترب الأمل حتي جاء الموت لكي يؤجل الحلم مرة أخري بعد انتظار طويل، ثمة عقبة أخري تتمثل في سالم الذي لا يود مغادرة البلدة إلا بعد انتهاء أيام المولد، يقيم في المنزل كأحد أفراده، لو علم بما يجري سيُكثر الكلام ويلُحُّ في الوعظ، يعرفه جيدا، به من بقايا قيم ومبادئ كان يُطنطن بها سيد، ودَّ لو يصرفه من البيت، حالَ دون ذلك وفاء مفتعل للأخ الغائب، لم يجد ضيرا في إخباره، لن يفعل شيئا ذا بال، بل ربما ذهب عن البيت والبلدة غاضبا، وبهذا يكون المراد قد تحقق، فيتخلص منه ومن مواعظه.

لـم تخفـف من وحشـة نفسـه الجمـوعُ الغفيـرةُ التي جـاءت لأداء واجب العزاء، أحس بعد رحيل أم سـيد وهي في أشـد الشوق إلي رؤية ابنها القادم بعد سـاعات، أن المصائب حقا لا تأتي فرادى، هي سلسـلة تبدأ ولا نعرف متي سـتنتهي، الموت مدَّ خيوطه منذ أن قدم القرية أول أمس ولا يدري إلى من ستمتد هذه الخيوط، من سيُغَيَّب تحت التراب، مَن سـيُبكي عليه، ومَن سـتتجمد دموعه في عينيـه، أيُّ ثكل تعانيه هذه العائلـة؛ الابـن البكر تضيع زهرة شـبابه فـي الغربـة، والأم تقضها آلام المرض وآلام قسوة الابن الجشع، الابنة الكبرى في عالمها والصغرى منذورة للزواج لمن سيدفع أكثر.

ظـل واقفا طـول اليوم بجانـب عبد العاطـي يتلقى واجـب العزاء، كان يحس بثقل على نفسـه لا يتحمله يود لو يترك السـرادق ويهيم علي وجهه، مراسم الدفن والتشييع أنْسَتْ الجميع ميعاد وصول عبَّارة سيد، ولـم يكن عبد العاطي بالذي يهتم بشـيء الآن سـوى انتهـاء يوم العزاء ليتمكـن مـن إحضار الشـيخ ومعاونيه الذين سـيتولون إخراج الأشـياء التي عثروا عليها، قبل ساعة من موت الأم تكشَّفت لهم عمليات الحفر عن شـيء أشـبه بالغرفة الصغيرة مَنحوتٌ على صخرة مستطيلة – تشبه بابا بمزاليج حديدية– حروف هيروغليفية، أكد له كل من حوله أن هذه مقبـرة، لـم يكن مُصدقا أن يتمخض حلمه عن مقبـرة كاملة، كل ما كان يرجوه هو قطعة أو قطعتين أثريتين يُودِّع بثمنهما مظلة الفقر التي لازمته طيلة حياته.

توالـت دقـات الطبول معلنـةً الرحيل، هـا قد حانت سـاعة الختام، انطوت ليالي السيد، وكما يحدث في كل عام تبدأ بطبول الغجر وتنتهي

بها، وبين الطبلين أحداثٌ جسـام كأنها لـم تكن أياما معدودة وتنقضي، كـم مـن أرواح طـارت نحو خالقهـا، ودماء سـالت، أنفـس زهقت، لا تـدري ما ذنبهـا كي تُودع في التراب لتُنسـى بعد أيام مـن دفنها، كم من الأعيـن باتت لأيـام طوال لا يرقأ لهـا دمع، ولـم لا؟ والدقيقة التي تمر تحمل في ذهابها أرواحا إلي خالقها. فلم الحزن؟ والموت في نشـاطه لا يتوقف وصديقه الحزن يتابعه خطوة خطوة.

بدأت الشـوراع تلفظ من اتخذوها سُكنى لهم حتى غابت معالمها، وخَـف الزحام برحيـل الوافدين و الغرباء إلـى بلادهم وظلت العربات تنقلهـم طوال الليل، تروح وتجيء، والكل يغادرون القرية محملين بما اشـترَوه من حلوى، وخروب، وحمص وفول سـوداني، أيدي الأطفال ممسـكة باللعـب التي لا يرونها تُبـاع إلا في المولد وأيـام الأعياد، كان المولد فرصة للجميع للتسوق وأيضا سوقا للباعة يرتزقون منه، هي أيام فرج، كلٌ يوسِّـع على نفسه وأهله، حتى المعدمين والفقراء يجدون من ينفق بسـخاء ويُخرج الصدقات، يطرق الفقير منهم إلى منزل يعرف أن صاحبـه من الموسـرين فيُدخله إلى حجرة ليتناول الطعـام المكوَّن من اللحـم والمرق والرغفان الخارجـة لتوها من الفرن، يأكل ويملأ معدته حتـى آخرها ويحث أولاده على الالتهـام فوق طاقتهم فقد يقضون أيام المولـد كلـه علي هـذه الأكلة، التي لـن يطعموها ربما لمـدة عام قادم، بعض الموسـرين يفتح داره، يستقبل جموع الناس الآتية لتناول الطعام من أهل القرية ومن الغرباء أيضا، البعض الآخر يشـترى عجلا ويذبحه ليجعل من لحمه طعاما لهؤلاء القادمين، منهم من يبغي الرياء والسمعة ومنهـم مـن يبغي ثـواب اللـه للوافدين الذيـن لا يجدون قوتهـم، يكثر

المتسـولون والشـحاذون وذوو الحاجات في المولد، بالنسبة لهم تُعد الموالد سـوقا رائجة لهـم يجدون من ينفق دون حسـاب، لكنَّ أكثرهـم يأتي للسرقة، ولعب القمار، وشرب البوظة المسكرة التي تخصص لها غرز في مكان متوارٍ عن الأعين في طريق مظلم غرب المقابر.

ذهـب جميع المعزين، لم يبق سـوى ثلاثة رجال، منهم رجل ملتحٍ كان قـد جـاء منـذ عـام، عاين البيـت، دخل جميـع حجراته، اسـتخدم القياسـات، أجـرى عدة حسـابات علـى ورق أصفر باهـت أخرجه من حقيبة جلدية تبـدو مهترئة، تمتم بكلمات معدودة، أخذ في تلاوة آيات مـن القرآن، أشـعل بَخورًا، ثم أخرج كتيبا صغيـرا وبدأ يقرأ منه بصوت أجـش، نغَّم صوته كأنه يقـرأ القرآن، أخذتْ عبد العاطـي وقتها رجفةٌ، تلـك الطقـوس تذكره بحلقات تحضيـر الجان التي يسـمع عنها، طرق قلبه الخوف والأمل في الوقت نفسه، بعد ما يقرب من ساعة من إشعال البخـور وترديد التلاوات، كانت الحجرة التي اجتمع فيها ذلك الشـيخ ومعاونـوه مـع عبد العاطي ممتلئة كلها بدخان أزرق لم يسـمح الشـيخ بفتـح النوافذ رغم ما بدا على عبـد العاطي من الاختناق، احمرَّت عيناه وأخذ يسـعل، حاول الخروج من الحجرة مُدَّعيا إحضار شرابٍ للشيخ ومن معه، اسـتوقفه الشيخ بنظرة شـزراء ردَّته إلي مكانه، جلس صامتا، منتظرا انتهـاء الحفلة الدخانية، وكاد صبره ينفد، فكر أن يعتدل ويخرج مـن الحجـرة مهمـا يُكلفه ذلـك من غضـب الشـيخ، غير عابـئ بذلك الخرف، لكن طقم الأسـنان الذهبي الذي أطل من بين شـفتي الشـيخ، وتلـك الابتسـامة التي رفرفت علي فمه أعادت هـدوءه إليه مرة أخري، انتصب الشيخ فجأة دون أن تغادره ابتسامته قال له:

الآن تستطيع أن تشرع النوافذ، نوافذ الأمل ستظل مشرعة بفضل الله وبركته، أهل هذه البيت كرام أولاد كرام لن يغادرهم العز طيلة حياتهم وسيمتد إلى أنسالكم وأنسال أنسالكم لن تغادركم البركة أنتم أهل فضل قد من ربكم عليكم بعطايا ومنح ستُظِلّكم بمظلة الرغد وبحبوحة العيش.

أحس عبد العاطي بالقدْر الكبير من مَلقِ ذلك الشيخ لكنه لم يفهم مقصده فأبان وجهه عن عدم فهم ما قاله.

قال الشيخ بعد أن اتَّسعت ابتسامته حتى كادت أن تغرق الكلمات الخارجه من فمه في ضحكة باردة لم يستثغها عبد العاطي:

- ثمة كنز مطمور في بيتكم المبارك! حددنا موقعه وإن غابت عنا نقطة الولوج إليه، هذه بشرى عظيمة، فقط لَبِّ طلباتِ الجان واصبر في بحثك ولا تتعجل عندها ستكون مالكا لتلك الخفايا التي يحتضنها التراب الذي يفترش أسفل قدميك.

سأله عبد العاطي عن طلبات الجن، فأجاب أنه لا يرغب في شيء لكن تلك أوامر فوقية لا دخل له فيها أبان عبد العاطي فهمه وجهة نظره وإن أخفى امتعاضا داخل نفسه، مدَّ الشيخ ورقة طويلة أخرجها من ملابسه مرقمة بالأشياء المطلوبة؛ خروفان وجمل عمره عام ونصف، وألف جنيه، وعدة أجولة من القمح، وجوالان من البلح ثم أشار الشيخ ألاَّ ينسى في خضم ذلك أجرة مواصلاته ذهابا وإيابا إليه، وأجرة الرجال الذين تبعوه - وإن لم يفعلا شيئا يذكر - وعليه ألا ينسي هدايا يدخل بها على أهل بيته وأهل أعوانه، وأخيرا أشاد بكرم أهل هذه البلدة، خاصة كرم أهل هذا البيت المبارك!، وبشاشة وجوههم تلك التي جعلته يتنبأ

بحسن طالعهم، شكره عبد العاطي بمجاملة لا تقل عن مجاملاته مَلقا وزُلفي لرضى الشيخ ومداومته الزيارة لحين العثور علي تلك الخبايا، وأظهر الموافقة علي إجابة كل طلبات الشيخ فصحح له قائلًا: ليس لي بل لهم يا بني!

تتابعت زيارات الشيخ خلال ذلك العام الذي لم ينقطع فيه عبد العاطي عن مواصلة الحفر محضرا الرجال الذين يقومون بالحفر ضاعف لهم أجرهم حتى لا تتناقل الألسن خبر بحثه عن الكنز المطمور، شدد عليهم، في افتضاح الأمر، وكثرة تناقل الحديث بين الناس ذهاب لتلك الخبايا في أعمق الأعماق واستحالة العثور عليها وضياع الجهد والأموال التي أنفقها، وعدهم بالعطايا فور العثور على الكنز وبيعه سيُغدق عليهم أموالا تجعلهم الأكثر ثراء بين كبراء البلدة، شريطة الكتمان، أظهر لهم الوُد، أشعرهم أنهم ليسوا حفارين ينقبون مقابل أجرتهم، بل هم شركاؤه، ومعاونوه، حكي لهم عن جشع الشيخ وطمعه، وكثرة ما يطلبه مدعيا أن حاجات الجن لا تتوقف مادامت رحلة البحث لم تنتهِ بعد.

مال عبد العاطي علي أذن سالم طلب منه أن يدخل ليستريح قال له إنه تعب طوال اليوم من الوقوف معه في السرادق، شكر له - بخبث - جميل صنعه، دعاه للذهاب للراحة والنوم، همس سالم قائلًا له ألا توجد أخبار عن سيد كان يتوجب له الحضور الليلة ولم يأتِ، فأجابه في امتعاض أخفاه في ابتسامة توحي بالإشفاق إنه ربما تأخرت العبَّارة عن موعدها، يحدث كثيرا، أنت تعلم بواخرنا وعباراتنا ليس لها ميعاد مضبوط. ذهب سالم إلى حجرته فوجد طعاما كانت نُهي قد أعدته

له بأمـر من أخيها، كانـت الصِّحاف على الصينية مغطاة بمنشـفة وجه، وقعت عيناه علي الطعام المغطى، رفع الغطاء، نظر إلي الأطباق، همس بصوت مسموع «أحضرته نُهي بنفسها إلي هنا قدماها عبرت ذلك الباب ربمـا طهته بنفسـها». تذكـر رؤيته لها في مشـهدين مشـهد بكائها وقت خروج روح أمها، ومشهد التقائه بها وسلامه عليها غير مبرر وابتسامتها وربمـا تغيـر ملامح وجهها الـذي توهمه أكثر امتلأ عن ذي قبل، سـرح خيالـه مجترا أحداث يوم طويل مشـحون بالتفاصيل، قبل جلوسـه عاد ليغلق عليه الباب فلمح من بعيد عبد العاطي يأمر أخته وزوجته ونسـاء العائلة اللائي سـيبتن فـي البيت، بالصعود إلى الطابـق الثاني، لم يلمح وسـط الضوء الشحيح إلا شبح نُهي وصوت عبد العاطي الزاعق فيهن، تمنـى لو تطول مجادلتهن لعبد العاطي حتـي يتمكن من رؤيتها، حاول التدقيق عسـاه يتحقق مـن ملامح الوجه الصباحي لكـنَّ قلبه غاص في حنينٍ وهو يسمع خطواتها بين الأقدام الصاعدة إلي الطابق الثاني.

كانـت أسـنان الشـيخ الذهبيـة تلمـع إثـر انعـكاس ضـوء المصباح الكهربـي عليهـا، جالت نظراته في محيـط الغرفة، هزَّ رأسـه تعبيرا عن ارتياحـه، مال على عبد العاطي، همس في أذنه «أنت محظوظ، لم تَطُل مـدة بحثـك، هناك مـن يواصل البحث لسـنوات عديـدة ولا يصل إلى شـيء، يدركه الملل والاسـتعجال فيهيل التراب علـى ما حفره، ويولِّي ظهره للأمل الذي راوده، أنت صبرت ولـم تتعجل فنلت خيرا كثيرا»

قرأ الشيخ آية الكرسي قبل نزوله للحفرة التي أشار إليها عبد العاطي، بدأ هو النزول على سُـلَّم خشـبي تبعه رجلان ممن جاءوا معه ثم نادى لعبـد العاطي وهو في أسـفل الحفرة فتبعهم ممسـكا بمصباح كهربائي

شـديد الإضـاءة، موصولًا بسـلك يمتـد لأمتـار طويلة تكفـي لإيصاله إلـى أعمق حفرة حفروهـا، وقفوا أمام غرفتين توجـد بهما قاعدتان من الجرانيت الأسـود كأنهما بابان بمزلاج حديدي، أخرج الشيخ من جيبه شـيئا أشبه بالفحم وبقدَّاحته أشعل الفحم ثم وضعه علي المزلاج تمتم عـدة عبارات، أمر الرجلين فجذبا القاعـدة الرخامية للباب الواقع على يسـارهما فتزعزعت من مكانها حتى صارت فـي متناول أيديهما، ذهل عبد العاطي لبسـاطة فتح البابين بعد أن ظن الدخول عن طريقهما أشبه بالمسـتحيل، نظر الشيخ له ثم قال سندخل عن طريق هذا الباب، كانت نظـرات عبد العاطي تستفسـر عن السـبب، لـم يتركه في حيرتـه أخبره أن فـي الدخـول من الباب الأيمـن هلاكنا جميعا، صمت أمام ابتسـامة الشـيخ، كانـت الغرفة مربعة، سـقفها واطـئ، من كثافة الظـلام لم يُميِّز شـيئا من تفاصيـل الحجرة كانـت اللهفة تحرق قلب عبـد العاطي فيما بدا الشـيخ هادئا، كان يسـير كأنه دخل الحجرة من قبل مرات ومرات، فـور دخولهما عالج صندوقـا مغلقا، وجد تمثالا مـن الجرانيت صغير الحجـم طولـه حوالي اثنا عشـر سـنتيمترا على شـكل موميـاء فرعونية وتمثال آخر من الجرانيت صغير الحجم طوله حوالي سـبع سنيتمترات يمثل النصف العلوي لشـخص فرعوني، بدت أسنانه أشد لمعانا عندما رفع رأس تمثال من الذهب الفرعوني له قاعدة مربعة، ما اسـترعى نظر الجميـع وجود قفازات طبية متروكة، وعدسـة مُكبرة، نظر الشـيخ لعبد العاطـي نظرة دلَّت علي أن أحدا دخل الحجـرة من قبل، كانت نظرات عبـد العاطـي خليطا مـن الحيـرة والبله والاستفسـار، من الـذي اجتاز

الحجـرة مـن قبل؟ أيكـون أحد قد حـاول الحفر قبله ووصـل إلى هنا، وترك هذه الأشياء؟

انتظر من الشيخ سؤالًا عن هذا كله لكن الآخر لم ينطق كعادته اكتفي بابتسامة سـاخرة، جذب الشيخ رداء عبد العاطي فخرج من صمته هازًا رأسـه مستفسـرا عما يريد، أمره أن ينير بمصباحه صوبَ المواضع التي تقع عليها يدُه، كانت نبراته آمرة ممزوجة بتهديد مخيف.

تكشـفت عمليـات البحـث عـن مجموعـة مـن التوابيت الخشـبية الخاصة بأصحاب المقابر تضم بقايا هياكل عظمية إضافة إلى مجموعة مـن الدُمـى المصنوعـة مـن العـاج و كذلك علبة مـن العاج عبـارة عن مجموعة من المثلثـات و المربعات المصنوعة من العاج أيضًا وكذلك عثروا على مجموعة من قطع «الشسـت» مسـتطيلة الشـكل ربما كانت تستخدم لتنعيم و تسوية قطع العاج و العظام بالإضافة إلى مجموعة من الخرز من العقيق الأحمر و بعض الأحجار الكريمة

كان التعـب قـد نال من الجميع عند الانتهاء مـن جمع كل ما عثروا عليـه، عبد العاطـي كان أكثرهم إعياء خاصة أن خوفه ضاعف من تعبه، كانت دقات قلبه لا تتوقف، غلبت هواجسه على فرحته، كما أن وجوده فـي حفرة تحت الأرض مـع غرباء وقد صار الآن يملك ثروة طائلة بعد أن أخبره الشيخ وهو يداعب لحيته الرمادية أن رأس التمثال ذي القاعدة الرخامية سيجعله يغرق في الثراء حتى أذنيه.

(18)

حُـلْـــــمٌ

كان الفجـر قـد اقتـرب مـن البزوغ، السـاعة تشـير إلـى الرابعة بعد منتصف الليل، بدأت الجموع تنصرف هذه آخر ليلة في المولد، انسحب الجميع بعد أيام ذاقوا فيها النوم قليلا، هدَّهم السهر الطويل والنوم على الأرصفـة وسـط ضجيج المارة ونداءات الباعة التـي لا تتوقف، الجلبة داخل البيت بدأت تتوقف كان كل ما عُثر عليه يجمعه الرجال بمساعدة عبـد العاطي، ويقومون بتجميعه في أجولة من الخيش، «سـالم» غارق في نوم دون أن يحس بما يجري في الأسفل.

بدأتْ صفارات الإنذار تنطلق معلنة وجود حريق في الطابق السفلي من العبارة لم يستطع العاملون إطفاء الحريق بالوسائل التقليدية، عندها قرر القبطان فتح غطاء يشبه بابا صغيرا في هيكل السفينة الخارجي يطل على هذا الطابق لتغمر جزءًا منه مياه البحر مما سيقضي تماما على النار المتوقدة، و بمسـاعدة اثنا عشـر محركا سـيتم بعدها إخراج مياه البحر إلى خارج السـفينة، وفُـتح الباب و تدفق الماء و انطفأت النار ثم جاء دور المحـركات فلـم يعمل منها إلا اثنـان، لم يتمكنا مـن إخراج الماء

الكثيـر الذي تدفـق فملأ الطابق كله، بمرور الوقت بـدأت العبارة تميل علـي جانبهـا الأيسـر، أيقن الجميـع بالهلاك، بـدأوا في ارتـداء أطواق النجـاة، لم يكـن عددها يكفي لجميـع الركاب، فضلا عـن أن معظمها لم يكن صالحا للاستعمال، وقف سيد في ذهول، عيناه مصوبتان نحو المـوج المتدفـق كانت صورة أمـه وأخوته وصديقه سـالم تلوِّن الموج بلون أحمر قان وسط هذه الظلمات الكثيفة.

جـاءت سـمكة قرش وحشـية حامت حولـه، فغرت فمهـا الضخم فقضمـت نصـف جسـده الأسـفل. لـم يصـدر منه صـوت بل تَشـنجٌ، خرجت أنفاسـه مكتومة، وهو يتلو الشهادة وقد زادت الصورة وضوحا ورأي وجه أمه باسـما ويدها تمتد له مُشـعة ضياء خارقا، مدَّ يده التي لـم يبق سواها بعد أن التهم القرش جسده كله وتناثرت باقي أشلائه.

انتفض سالم من نومه صارخا، نافضا عن رأسه ذلك الحلم، كانت هناك صرخـات تأتي مـن فوق من الطابـق الثاني، جـدران البيت تتداعـى، البيت القديـم الذي أمـل عبد العاطي في هدمـه وبنائه من جديد بعـد قصعة الثراء القادمـة، لـم يتحمل الحفر تحت أسـاس جدرانـه تقوضت أركانـه، وانهار علـى رأس عبدالعاطي والشـيخ وباقي الرجال فدفنوا أسـفل أكوام التراب، كانت نُهي تجري لأسفل، محاولة الخروج من المنزل قبل تمام انهياره، في حين أنَّ النسـوة الأخريات تعثـرن أثناء محاولتهن جمـع أولاد عبد العاطي صارت الأمُّ تولول عندما وجدت أن الأبناء سـقطوا بانهيار أرضية الحجرة، لم تمهلها صرخاتها وتشنجاتها فتبعتهم هاوية، سالم خرج من حجرته، نظر إلـى أعلى نادى على نُهـى بأعلى صوته، لم تجبه كانـت حجرته منعزلة عن باقـي البيت، ليس فوقها طابق ثانٍ؛ فشـاهد الانهيار دون أن تمسـه الجدران

المتهاويـة بسـوء، لـم يجد بُـدا من أن يبحـث عنها بيـن أكوام التـراب لكن تصاعـد الأتربـة كاد يخنقه، تذكر الحلم، حدث نفسـه «لم يكـن حلما أكان واقعا؟»، تعثر أثناء جريه، أيقن الهلاك إن ظل وسط ذلك الحطام.

كان يجـري مسـرعا، لاهثـا مخلفـا وراءه الذكرى، كانـت قدماه تثير التـراب في جرجرتهما البطيئة، تراءت أمـام عينيه- اللتين أخذتا في طفر خيوط الدموع بلا توقف- صورٌ شتى كشريط سينمائي طالما تراءى له في لحظات ضغط الذاكرة، لكن هذه المرة لم ير إلا أولياءً وقديسين، تحضر بينهم صورة والده ووالدته لحظة وفاتهما، كانت يدُ سـيد تمسـك بيد أمه ويصعدان لأعلى، تُظللهما أنداء الفجر الذي بدأ بزوغه، سال الدمع أكثر، صـار الكـون حوله ضبابيا، لم يكن شـيء من حوله ليلفتـه عما يراه، كان لقلبِهِ أزيز كأزيز المراجل، كانت القرية قد أخلت شوراعها من الوافدين، الجميع حمل أمتعته وغادرها لم يتبقَ إلا ما خلَّفوه من بقايا أطعمتهم في الأماكـن التـي اتخذوها مكانا للنـوم والتغوط، رائحة غريبـة كانت تزكم أنفاسـه، تجاهلها ولم يشـم سـوى روائح تناديه صوب هدفه الذي يعدو إليـه، مـرَّ على خيام الغجـر الذين رحلـوا تاركين ما يـدل على وجودهم من بقايا الرمـاد الذي كان أمام الخيام التي طويت وحُملت على الجمال والحميـر، رائحة بقايا طعـام مدلوق، أنفاس الراحليـن كانت تتجول في كل مكان وطأهُ، دالة على وجودهم، انتهى عدوه البطيء من حيث ابتدأ، مكان الصلاة وسط جموع من الناس لم تكن موجودة، توهمها حوله في كل مكان تستمع إلي الشيخ عبد العال -وهو يلقي خطبته وسط ابتهالات النـاس وتضرعاتهـم - كان قـد غادر القريـة إلى حيث لا يعلم هو نفسـه وجهتـه، هنـا علا صوته بالصراخ جأر صوته بكل مـا يملك من قوة، كان

يهرول في مكانه لا يرى سوى الأشباح تتقافز أمام عينيه، تجاوبت أصداء صرخاتـه بأصـداء صرخات أخرى كأنهـا تنادي الصـوت ولا تناديه هو، نُهـي جاءت تجـري بعدما رحل الجميع لم يبقَ لها سـوى هـذا المكان؛ ضريـح «السـيد»، كأنـه كان فـي انتظارهـا تَصرخ يَصـرخ، تُنـادي يُنادي بمثـل مـا تُنادي به، تعانقـت أصواتهما، اشـتبكت أحزانهمـا، تلاقت في عتمة الأيام مأسـاتهما، مضيا في عناقهما المحموم، جسـدين ملتصقين، لسـاعات طويلة اسـتمرت النداءات كأنها تخاطب الموتى في مقابرهم، لم يسـتيقظ الموتى، ولـم يحسـوا بعذاباتهما، فقط انتفض كل أهل القرية صوب ضريح «السـيد» حيث كانت تعلو الصيحات، اكتظَّ الناس باحثين عنهما، بعدما ميَّزوا الصوتين، من سـينادي الموتى غير هذين المُلتاعين، جـدوا في البحـث، لعلهم رحلوا، إلى أيـن؟ جابوا الصحـراء حتى كَلُّوا من التعب لم يكن أمامهم سـوى النبش في الرمال لعلها ابتلعتهم، بدأت الغمغمة، تفسـيرات عديدة، أُختلقت حـول حادثة اختفائهما، انتهت كل تلـك التأويـلات ببنـاء ضريحين وهميين بجوار ضريح «السـيد»، سـميا ضريحا القِدِّيْسَـينِ، وكل مَن كان يأتي لزيارة «السـيد» لا يغادر القرية من دون أن يقرأ الفاتحة أمام هذين المشهدين الوهميين!.

● فــي هذه اللحظة امتلأ الدفتر ولم يكن هناك ما يفي بتدفق وانثيال الكلمــات، فوُضعت نُقطة النهاية لتبدأ نقاطٌ أخرى لا تريدُ أن تنتهي....



فبــرايــر 2012

تنويه

الشعر والمواويل الواردة في الرواية من التراث الصوفي والشعبي.

شكر خاص

شخصانِ لهما فضلٌ في كتابة رواية ليالي السيد..

الأول **هي بطلة الراوية «نهى» فلولاها ما تمت الحكاية، وكثيرًا ما فكرت بتسمية الرواية «نهى» ولكن لدواعٍ احترازية سميتها بهذا الاسم.**

الشخص الثاني **هو صديقي الباحث الجاد الدكتور أحمد عقل؛ فقد كان له الفضل في تحفيزي على كتابة الرواية على الكمبيوتر بعدما كانت مكتوبة بخط اليد، ألحَّ عليَّ في الصيف الماضي بمحبته، وتابعني بعين رعايته حتى لا أتكاسل وكثيرًا ما أفعل، ثم تابع معي العمل حتى استوى تامًّا كاملا.**

قُبلةُ محبة على جبينك يا أحمد.

وسلامٌ عليك يا «نُهى» أينما كُنت...

سيـــرة ذاتيـــة

- **الاسم:** أحمد محمود أحمد جاد الكريم.
- **اسم الشهرة:** أحمد جاد الكريم.
- **الوظيفة:** معلم لغة عربية - قاص وروائي.
- مواليد قرية الجبيرات - طهطا في 1985/9/19
نُشرت قصص قصيرة له في الجرائد والمجلات المصرية
- **له تحت الطبع:**
رواية أحزان نوح.
- **الجوائز:**
1 - جائزة ساقية الصاوي للرواية 2014 - المركز الثاني- عن رواية «ليالي السيد».
2 - القائمة القصيرة في المسابقة السنوية لمركز عماد قطري للإبداع والتنمية الثقافية عام 2014 عن رواية «ليالي السيد».
3 - جائزة لجنة الشباب باتحاد الكتاب للقصة القصيرة 2014، عن قصة «رجل لا ينام».
- **للتواصل مع الكاتب:**

HYPERLINK "mailto:a_jad333@yahoo.com" a_jad333@yahoo.com

HYPERLINK "https://www.facebook.com/AhmedJad1985" https://www.facebook.com/AhmedJad1985

01146070521